سورة هود

١٠٠- قال السيوطيّ: وأخرَجَ ابنُ مردَويه عن عبد الله بن الزبير قال: نزَلَتْ سورةُ هود بمكّة (١).

(١) الدر المنثور (٨/٥)، وانظر: فتح القدير (٢/٤٧٩)، روح المعاني (١١/٢٠٢)، التحرير والتنوير (١١/٣١١).

دراسة الأثر:

لا خِلافَ بين المفسّرين في مكيّة سورة هود، لكن هل هي مكيّة كلّها أم فيها آيات مدنيّة اختَلفُوا فيه على أقوال، وهي:

القول الأول: أنّها مكيّة كلّها، رُوِي عن ابن الزبير وابن عباس – رضي الله عنهما –، والحسن وعطاء وعكرمة ومجاهد وجابر بن زيد وقتادة، وهو قولُ جمهور المفسّرين.

القول الثاني: أنّها مكيّة غير آية، وهي قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ الآية (هود: ١١٤)، فإنها مدنيّة، رُوِيَ عن ابن عباس ﷺ، وقتادة.

القول الثالث: أنها مكيّة سوى آية، وهي قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ الآية (هود: ١٢)، رُوِيَ عن ابن عباس ﷺ.

القول الرابع: مكيّة إلاّ ثلاث آيات، وهي قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ الآية (هود: ١٢)، وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ الآية (هود: ١٧)، وقوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ ﴾ الآية (هود: ١١٤)، فإنّها نزلتْ بالمدينة، رُوِيَ عن مُقاتل.

والرّاجح – والله أعلم –: أنّها مكيّة إلاّ قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾، فإنّها نزلتْ بالمدينة؛ لما أخرَجَه الشيخانِ من حديث ابن مسعودٍ ﷺ أنَّ رجُلاً أصابَ من امرأةٍ قُبْلةً، فأتَى رسولَ الله ﷺ، فذكَرَ ذلك له، فأُنزِلَتْ عليه ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾.

صحيح البخاري/ كتاب: التفسير/ باب: قوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾/ رقم (٤٤١٠)، صحيح مسلم/ كتاب: التوبة/ باب: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾/ رقم (٢٧٦٣)، واللفظ للبخاري.

وفي روايةٍ لمسلمٍ قال ذلك الرجلُ: (إنّي عَالَجْتُ امرأةً في أَقْصَى المدينة)، وهذا صريحٌ في نزولِ هذه الآية بالمدينة.

وقد رجّح مدنيّةَ هذه الآية الشنقيطيّ، فقال في عُرض كلام له: "الآية نزلت في أبي اليَسَر في المدينة بعد فرض الصّلوات بزمن، فهي على التحقيق مشيرة لأوقات الصلاة، وهي آية مدنيّة في سورة مكيّة". اهـ.

أضواء البيان (١/٢٨٠)

أمّا قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن

رَّبِّهِۦ ﴾ الآية، فالصَّوابُ – والله أعلم –: أنَّهما مكيّتان كبقيّة آيات السورة؛ لعدم وجود دليلٍ على استثنائِهما، وموضوعهما وسياقهما يُؤيِّدانِ مكّيّتَهما.

فقولُه تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ الآية تسليةٌ للرسول ﷺ، وحثُّه على الثبات، والصبر، وتبليغ الدعوة، وعدمِ المبالاة بمُخالفة المشركين، وكلّ ذلك من أساليبِ التنزيل المكيّ بلا شكّ.

وهناك آياتٌ مكيّةٌ أخرى تُشبِهُ هذه الآيةَ في أسلوبها وموضوعها، منها قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ٧)

وكذلك قولُه تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ الآية إخبارٌ بصدق الرسول ﷺ في دعوته، وبيان صحّة ما هو ﷺ عليه وأتباعه، والأدلّة على ذلك، فهذا كلُّه يؤيِّد مكيّةَ هذه الآية.

أو أنّ هذه الآية في مُقابلة الآية التي قبلها، فتكون مكيّة مثلها؛ لكونهما نزلَتا في سياقٍ واحدٍ، وذلك أنّ الله لما ذكَرَ في الآية السابقة الذين كان همُّهم الحياة الدنيا وزينتُها ذكَرَ في هذه الآية من كان يُريدُ بعمله الآخرةَ، أي: أفمَن كان بهذا الوصفِ المذكور في الآية كمَن كان همُّه الحياةُ الدنيا وزينتُها؟.

انظر: تفسير مقاتل (١٠٨/٢)، تفسير الطبري (٢٧٧/١٥)، الناسخ والمنسوخ للنحّاس ص (٥٣١)، الناسخ والمنسوخ للمقري ص (١٠٥)، تفسير السمعاني (٤١٨/٢)، تفسير البغوي (١٦٦/٤)، المحرر الوجيز (١٤٨/٣)، زاد المسير (٧٢/٤)، تفسير الرازي (١٤٢/١٧)، تفسير القرطبي (١/٩، ١٦)، تفسير الخازن (٢١٦/٣، ٢٢٤)، تفسير البحر المحيط (٢٠٠/٥، ٢١١)، تفسير النيسابوري (٣/٤)، تفسير الثعالبي (١٩٦/٢)، الإتقان في علوم القرآن (٤٩/١)، الدر المنثور (٥/٨)، الناسخ والمنسوخ للكرمي ص (١٢٤)، تفسير المنار (٢/١٢)، التحرير والتنوير (٣١١/١١).

○○○○○

سورة يوسف

١٠١- قال السيوطيّ: وأخرَجَ ابنُ مردَويه عن ابن الزبير قال: أُنزِلَتْ سورةُ يوسف بمكَّة (١).

(١) الدر المنثور (١٧٥/٨)، وانظر: فتح القدير (٣/٣)، روح المعاني (١٧٠/١٢).

دراسة الأثر:

لا خِلافَ بين المفسّرين في مكيّة سورة يوسف، لكن هل هي مكيّة كلّها أم فيها آيات مدنيّة اختَلفُوا فيه على أقوال، وهي:

القول الأول: أنّها مكيّة كلّها، رُوِيَ عن ابن الزبير وابن عباس – رضي الله عنهما –، وهو قولُ جمهور المفسّرين.

القول الثاني: أنّها مكيّة إلاّ ثلاث آيات، وهي قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ (يوسف: ١- ٣)، فإنّها مدنيّة، رُوِيَ عن ابن عباس ﷺ، وقتادة.

قال السيوطيّ مُضَعِّفاً لهذا الاستثناء: "وهو واهٍ جِدّاً، لا يُلتَفَتُ إليه". اهـ.

الإتقان في علوم القرآن (٤٩/١)

القول الثالث: أنّها مكيّة إلاّ أربع آيات، ثلاثٌ من أوّل السورة، والرابعة قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ (يوسف: ٧)، فإنّها مدنيّة، رُوِي عن ابن عباس ﷺ، وقتادة.

والرّاجح – والله أعلم –: أنّها مكيّة كلّها، كما رُوِي عن ابن الزبير ﷺ؛ فهو قولُ جمهور المفسّرين، وهو الثابت عن ابن عباس ﷺ، ولأنّ القول بالاستثناء – كما سبق – ضعيف.

ممّا يدُلُّ على مكيّتها ما أخرَجَه الطبريّ بسنَدِه عن سعد بن أبي وقّاص ﷺ قال: أُنزِلَ على النبيّ ﷺ القرآنَ، قال: فتَلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسولَ الله، لو قَصَصْتَ علينا، فأنزلَ الله ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ إلى قوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ الآية (يوسف: ١- ٣).

تفسير الطبري (٥٥٣/١٥) رقم (١٨٧٧٦)، وإسناده حسن، وأخرجَه إسحاق بن راهويه في مسنده كما في إتحاف الخيرة (٢٢٢/٦) رقم (٥٧٣٤)، قال البوصيريّ: "هذا حديث حسن". اهـ.

وأخرجَه البزار في مسنده (٣٥٢/٣) رقم (١١٥٣)، أبو يعلى في مسنده (٨٧/٢) رقم (٧٤٠)، الطحاويّ في شرح مشكل الآثار (١٩٦/٣)، ابن أبي حاتم في تفسيره (٢٠٩٩/٧) رقم (١١٣٢٣)، ابن حبان في صحيحه (٩٢/١٤) رقم (٦٢٠٩)، قال شعيب الأرنؤوط: "إسناده قويّ". اهـ.

وأخرجَه الحاكم في المستدرك (٣٧٦/٢) رقم (٣٣١٩)، وصحَّحَه، ووافقَه الذهبيّ، الواحديّ في أسباب النزول ص (١٨٢)، الضياء المقدسيّ في الأحاديث المختارة (٢٦٥/٣) رقم (١٠٦٩)، الهيثميّ في موارد الظمآن ص (٤١٨/٥) رقم (١٧٤٦)، قال المحقّق: "إسناده صحيح". اهـ.

فهذه الرواية كتمهيدٍ لما جاءَ بعدها من قصّة نبيّ الله يوسف عليه السلام، كما أنّ افتتاح هذه السورة بالحروف المقطّعة أيضاً دليلٌ على مكيّتها؛ لأنّه من ضوابط السوَر المكيّة في الغالب.

قال ابن أبي زمنين: "وهي مكيّة كلّها". اهـ.

تفسير ابن أبي زمنين (٢/٣١٥)

قال القرطبي: "وهي مكيّة كلّها". اهـ.

تفسير القرطبي (٩/١١٨)

قال الألوسيّ: "مكيّة كلّها على المعتَمَد". اهـ.

روح المعاني (١٢/١٧٠)

انظر: الناسخ والمنسوخ للنحّاس ص (٥٢٩)، تفسير الماوردي (٣/٥)، تفسير السمعاني (٣/٥)، الكشّاف (٢/٤١٥)، تفسير الرازي (١٨/٦٧)، تفسير القرطبي (٩/١١٨)، تفسير الخازن (٣/٢٦٠)، اللّباب لابن عادل (١١/٣)، الدر المنثور (٨/١٧٥)، تفسير أبي السعود (٤/٢٥٠)، فتح القدير (٣/٣)، روح المعاني (١٢/١٧٠)، تفسير المنار (١٢/٢٥٠)، مناهل العرفان (١/١٣٨)، التحرير والتنوير (١٢/١٩٧).

○○○○○

سورة الرّعد

١٠٢- قال السيوطيّ: وأخرَجَ ابنُ مردَويه عن ابن الزبير قال: نَزَلَ بالمدينةِ الرَّعْدُ (١).

(١) الدر المنثور (٣٥٩/٨)، وانظر: الإتقان في علوم القرآن (٤٢/١)، فتح القدير (٦٣/٣).

دراسة الأثر:

سورة الرّعد مكيّة أم مدنيّة، وعلى القول بمكيّتها أو مدنيّتها هل كلّها كذلك أم فيها استثناء اختَلفَ فيه المفسّرون على أقوال، وهي:

القول الأول: أنّها مكيّة كلّها، رُوِيَ عن ابن عباس ﷺ، ومجاهد وعكرمة والحسن وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة، وهو قولُ جمهور المفسّرين.

القول الثاني: أنّها مدنيّة كلّها، رُوِيَ عن ابن الزبير وابن عباس – رضي الله عنهما –، وجابر بن زيد وقتادة وابن جريج وعكرمة والحسن البصري والكلبي ومقاتل.

القول الثالث: أنّها مكيّة سوى آية، فهي مدنيّة، وهي قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الآية (الرعد: ٣٠)، نزلتْ في صلح الحُديبيّة في قريش حينَ قالوا: لا نعرِفُ الرحمنَ إلاّ صاحبَ اليمامة، يعنُون مُسَيْلمَة الكذّاب، رُوِي عن مجاهد وقتادة وابن جُريج ومُقاتل.

ورُدَّ على هذا القولَ بأنَّه لم يرِدْ به نصٌّ صحيحٌ صريحٌ أنّ الآية نزلتْ في صلح الحُديبية، بل الظاهر من الآية أنّ المراد بالكُفر هنا كفرُ المسَمَّى، وليس المراد كفرُ اسم (الرحمن)، وإطلاقُه على الله ﷻ، كما حصل في قصّة الحديبية، وهذا يُضعِّف القولَ بمدنيّة الآية، ويُؤَكِّدُ مكيّتَها.

قال ابنُ عطيّة: "والذي أقولُ في هذا أنّ الرحمن يُرادُ به اللهُ تعالى وذاتُه، ونُسِبَ إليهم الكفرُ به على الإطلاق، وقصّةُ الحُديبية وقصّةُ أميّة بن خلف مع عبد الرحمن بن عَوف إنّما هي إبايَةُ الاسم فقط، وهُروب عن هذه العبارة التي لم يعرِفُوها إلاّ من قِبَلِ محمّد ﷺ". اهـ.

المحرر الوجيز (٣١٢/٣)

قال الألوسيّ بعد أن ذكر عدّة أسبابٍ لنزول الآية: "وضُعِّفَ كلُّ ذلك بأنّه غيرُ مناسب؛ لأنّه يقتَضي أنّهم يكفُرون بهذا الاسم، وإطلاقه عليه سبحانه وتعالى، والظاهر أنّ كُفرَهم بمُسَمَّاه". اهـ.

روح المعاني (١٥٣/١٣)

القول الرابع: أنّها مكيّة سوى آيتَينِ، هما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ الآية (الرعد: ٣١)، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ الآية (الرعد: ٤٣)، فهما مدنيَّتان، رُوِيَ عن ابن عباس ﷺ، وقتادة.

أمّا الأولى؛ فلأنّ المراد بـ (القَارِعَة) عندهم السَّرايا التي كان يبعَثُها رسولُ الله ﷺ إلى الكفار، رُوِي ذلك عن ابن عباس ﷺ، وغيره.

ورُوِي عنه أيضاً أنّ المراد بها النَّكْبَةُ، وما يَقْرَعُهم من العذاب والبلاء، وهو الأنْسَبُ للسِّياق.

قال ابن عاشور: "ومن جعَلُوا هذه السورة مدنيّة فتأويلُ الآية عندهم أنّ القارعة السَّريَّة من سرايا المسلمين التي تخرُجُ لتهديد قُريش ومن حولهم، وهو لا ملجأ إليه ...، والمراد هنا الحادثة المفجِعَة بقرينة إسناد الإصابة إليها، وهي مِثل الغارَة والكارِثة تَحُلُّ فيهم، فيُصيبُهم عذابُها، أو تقَعُ بالقُرب منهم، فيُصيبُهم الخوفُ من تجاوزها إليهم، فليس المراد بالقارِعة الغزْوُ والقتال؛ لأنّه لم يُتَعارَف إطلاقُ اسمُ القارعة على مَوقِعَة القتال، ولذلك لم يكنْ في الآية ما يدلُّ على أنّها ممّا نزَلَ بالمدينة". اهـ.

التحرير والتنوير (١٤٦/١٣)

وأمّا الآية الثانية؛ فلأنّهم رأَوا أنّ المراد بقولَه تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ عبد الله بن سَلاَم ﷺ، وكان إسلامُه بالمدينة.

وهو قول ضعيف؛ فالآية مكيّة في قول الجمهور، والصحيحُ أنّ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ اسمُ جنس يُرادُ به جميعُ علماءِ أهل الكتاب، فيدخُل فيه من كان منهم قبلَ عبد الله بن سَلاَم ﷺ، وبالتالي لا دليلَ فيه على مدنيّة هذه الآية.

قال ابنُ كثير مضعّفاً لهذا القول: "وهذا القولُ غريب؛ لأنّ هذه الآية مكية، وعبد الله بن سَلاَم إنّما أسلَمَ في أول مقدمِ رسول الله ﷺ المدينة ...، والصحيحُ في هذا: أنّ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ اسمُ جنْس يشمَل علماءَ أهل الكتاب الذين يجِدُون صفةَ محمد ﷺ ونعتَه في كتُبهم المتقدِّمة من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ (الأعراف: ١٥٦- ١٥٧)، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (الشعراء: ١٩٧)، وأمثال ذلك ممّا فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل أنّهم يعلمون ذلك من كتُبهم المنزّلة". اهـ.

تفسير ابن كثير (٤٧٣/٤)

ممّن أنكرَ نزولَها في عبد الله بن سلام ﷺ سعيد بن جبير والشعبيّ حيثُ قال: السورة مكيّة، وعبد الله بن سَلاَم أسلَمَ بالمدينة.

ذكرَه السمعانيّ في تفسيره (١٠١/٣)، البغويّ في تفسيره (٣٢٨/٤)، الخازن في تفسيره (٣١/٤)، المظهريّ في تفسيره (٢٤٩/٥).

وذكرَ ابنُ عبد البر أنّ هذا القول لا وجهَ له عند الاعتبار.

وعلى فرض صحّة القول أنّ المراد بالآية عبد الله بن سَلاَم ﷺ لا يلزمُ منه كونها مدنيّة، فقد تكونُ من باب الإخبار عمّا سيحصُلُ في المستقبل.

القول الخامس: أنّها مكيّة سوى آيات، فهي مدنيّة، وهي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ (الرعد: ٨- ١٣)، نزلتْ في شأن عامر بن الطُّفَيل وأَرْبِد بن رَبِيعَة حين قَدِمَا المدينةَ على رسول الله ﷺ.

أخرَجَه الطبرانيّ في المعجم الأوسط (٦٠/٩) رقم (٩١٢٧)، والمعجم الكبير (٣١٢/١٠) رقم (١٠٧٦٠)، قال الهيثميّ في مجمع الزوائد (٤٢/٧): "وفي إسنادهما عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف". اهـ.

قال ابنُ عاشور: "ولما كان عامر بن الطفيل إنّما جاءَ المدينة بعد الهِجْرة، وكان جدالُ اليهود لا يكونُ إلاّ بعد الهِجْرة أقْدَمَ أصحابُ هذه الأخبار على القول بأنّ السورة مدنيّة، أوْ أنّ هذه الآيات منها مدنيّة". اهـ.

التحرير والتنوير (١٠٧/١٣)

وقال في الردّ عليه: "وهي أخبارٌ ترجِعُ إلى قول بعض الناس بالرأي في أسباب النزول، ولم يثبُتْ في ذلك خبرٌ صحيحٌ صريحٌ، فلا اعتدادَ بما قالوه فيها، ولا يُخرِجُ السورةَ عن عداد السُّوَر المكيّة". اهـ.

التحرير والتنوير (١٠٧/١٣)

القول السادس: أنّها مدنيّة سوى آية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ الآية (الرعد: ٣١)، فهي مكيّة، رُوِيَ عن قتادة.

القول السابع: أنّها مدنية سوى آيتَينِ، وهما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية (الرعد: ٣١) إلى آخر الآيتَينِ، فهما مكيّتان، رُوِيَ عن ابن عباس ﷺ، وقتادة.

القول الثامن: أنّها من أوّلها إلى آخر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية مدنيّ، وباقيها مكيّ، ولم يُعزَ لقائلٍ.

والرّاجح – والله أعلم –: أنّها مكيّة كلّها؛ فهو قولُ جمهور المفسّرين، وتُؤيِّدُه موضوعاتها وأسلوبها ومعانيها، ولأنّ القول بمدنيّة السورة أو ببعض آياتها –كما سبقَ – ضعيف.

قال ابن عاشور: "ومعانيها جاريةٌ على أسلوب معاني القرآن المكيّ من الاستدلال على الوحدانيّة، وتقريع المشركين وتهديدهم، والأسباب التي أثارتِ القولَ بأنّها مدنيّة أخبار واهِيَة". اهـ.

التحرير والتنوير (٧٦/١٣)

كما أنّ من ضوابط السوَر المكيّة في الغالب: السجدة القرآنيّة، وقد تضمَّنَتْها.

انظر: تفسير مقاتل (١٦٧/٢)، تفسير الطبري (٤٤٥/١٦)، الناسخ والمنسوخ للنحّاس ص (٥٣٥)، تفسير السمرقندي (٢١٥/٢)، تفسير ابن أبي زمنين (٣٤٤/٢)، الناسخ والمنسوخ للمقري ص (١٠٧)، الكشف والبيان (٢٦٧/٥)، البيان في عدّ آي القرآن ص (١٦٩)، تفسير الماوردي (٩١/٣)، الاستيعاب (٩٢٢/٣)، تفسير السمعاني (٧٥/٣)، تفسير البغوي (٢٨٨/٤)، الكشّاف (٤٨٢/٢)، المحرر الوجيز (٢٩٠/٣)، زاد المسير (٢٩٩/٤)، تفسير القرطبي (٢٧٨/٩)، تفسير الخازن (٢/٤)، تفسير البحر المحيط (٣٥٣/٥)، تفسير الثعالبي (٢٦٣/٢)، اللّباب لابن عادل (٢٣٤/١١)، الدر المنثور (٣٥٩/٨)، الإتقان في علوم القرآن (٤٢/١، ٤٩، ٥٦)، الناسخ والمنسوخ للكرمي ص (١٢٦)، فتح القدير (٦٣/٣)، روح المعاني (٨٤/١٣)، مناهل العرفان (١٣٨/١)، التحرير والتنوير (٧٥/١٣).

○○○○○

سورة إبراهيم

١٠٣- قال السيوطيّ: وأخرَجَ ابنُ مردَويه عن ابن الزبير قال: نزلتْ سورةُ إبراهيم بمكّة (١).

(١) الدر المنثور (٤٨٦/٨)، وانظر: فتح القدير (٩٢/٣)، روح المعاني (١٧٩/١٣).

دراسة الأثر:

لا خِلافَ بين المفسّرين في مكيّة سورة إبراهيم، لكن هل هي مكيّة كلّها أم فيها آياتٌ مدنيّة اختَلفُوا فيه على أقوال، وهي:

القول الأول: أنّها مكيّة كلّها، رُوِيَ عن ابن الزبير وابن عباس – رضي الله عنهما –، والحسن وعكرمة وجابر ابن زيد، وهو قولُ جمهور المفسّرين.

القول الثاني: أنّها مكيّة غير آية، فهي مدنيّة، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ الآية (إبراهيم: ٢٨)، رُوِيَ عن قتادة والكلبي.

القول الثالث: أنّها مكيّة سوى آيتَينِ، فهما مدنيّتان، وهما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ (إبراهيم: ٢٨- ٢٩)، نزَلَتا في قَتلَى بدْر من المشركين، رُوِيَ عن ابن عباس ﷺ، وقتادة ومُقاتل.

القول الرابع: أنّها مكيّة سوى ثلاث آيات، فهي مدنيّة، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ (إبراهيم: ٢٨- ٣٠)، نزلتْ في قَتلَى بدْر من المشركين، رُوِيَ عن ابن عباس ﷺ، وقتادة.

وأخرَجَ البخاريّ بسنَده عن ابن عباس ﷺ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هم كُفّار أهل مكّة.

صحيح البخاري/ كتاب: التفسير/ باب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾/ رقم (٤٤٢٣).

وهذا يُقوّي القولَ بمكيّة هذه الآيات؛ لأنّه ليس فيه تخصيصٌ بمشركي قتلى بدْر، كما في الأقوال السابقة.

وما رُوِي من نزولها في قَتْلى بدْر من المشركين ليسَ له دليلٌ صحيحٌ، وعلى فرض صحّته لا يلزَم منه أنّه سببٌ في نزولها، فقد تُطلَق عبارةُ: (نزَلَتْ في كذا)، ويُراد بها أنّ الآية تتَضَمَّن ذلك الحكم.

قال ابنُ عاشور مُنَبِّهاً على ما رُوِي من أسبابٍ ضعيفة لهذه الآيات: "وما يَروُون عن عمر بن الخطاب ﷺ وعن عليّ – كرَّمَ الله وجهَه – أنّ الذين بدَّلوا نعمةَ الله كُفراً هم الأفْجَرَانِ من قُرَيش: بَنُو أميّة وبنو المغيرة بن مخزوم، قال: فأمّا بنو أمية فمُتِّعُوا إلى حين، وأمّا بنو المغيرة فكُفِيْتُموهُم يومَ بدْر، فلا أحْسَبُه إلاّ من وضْعِ بعض المغرضين المضادِّين لبني أميّة، وفي روايات عن عليّ – كرَّمَ اللهُ وجهَه – أنّه قال: هم كفّارُ قُريش، ولا يُريدُ عمر ولا عليّ – رضي الله عنهما – من أَسْلَمُوا من بني أميّة؛ فإنّ ذلك لا يقولُه مسلم، فاحْذَرُوا الأفهام الخاطِئة، وكذا ما رُوِي عن

ابن عباس: أنّهم جَبَلَة بن الأَيهَم ومن اتَّبعَه من العرَب الذين تَنَصَّرُوا في زمن عُمَر، وحَلُّوا ببلاد الرُّوم، فإذا صحَّ عنه فكلامُه على معنى التنظير والتمثيل، وإلاّ فكيفَ يكون هو المراد من الآية، وإنّما حدَث ذلك في خِلافة عمر بن الخطّاب ﷺ". اهـ.

التحرير والتنوير (٢٢٩/١٣)

والرّاجح – والله أعلم –: أنّها مكيّة كلّها، كما رُوِيَ عن ابن الزبير ﷺ؛ فهو قولُ جمهور المفسّرين، ولأنّ القول بمدنيّة بعض الآيات –كما سبق – ضعيفٌ، بل يظهَر من هذه الآيات أنّها مرتبطةٌ بما قبلها وما بعدها، ونزَلتْ كلّها في سياقٍ واحدٍ.

قال ابنُ عطيّة: "وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ الآية هذا تنبيهٌ على مثال من ظالمين أُضِلُّوا ...". اهـ.

المحرر الوجيز (٣٣٧/٣)

قال البِقَاعيّ: "ولما أخبَرَ سبحانه أنّه هو الفاعل وحدَه أتبَعَه الدليلَ عليه، وعلى إضلال الذين بدَّلوا الكلمة الطيّبة من التوحيد بالإشراك، وزلزَلَتِهم، واجتِثَاثِ كلِمَتهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾". اهـ.

نظم الدرر (٤١٥/١٠)

انظر: تفسير مقاتل (١٨٢/٢)، تفسير الطبري (٥/١٧)، معاني القرآن للنحّاس (٥١٣/٣)، الناسخ والمنسوخ للنحّاس ص (٥٣٧)، تفسير السمرقندي (٢٣٤/٢)، تفسير ابن أبي زمنين (٣٦١/٢)، الناسخ والمنسوخ للمقري ص (١١٠)، الكشف والبيان (٣٠٤/٥)، تفسير الماوردي (١٢٠/٣)، تفسير البغوي (٣٢٩/٤)، الكشّاف (٥٠٥/٢)، المحرر الوجيز (٣٢١/٣)، زاد المسير (٣٤٣/٤)، تفسير القرطبي (٣٣٨/٩)، تفسير البحر المحيط (٣٩٢/٥)، البرهان في علوم القرآن (٢٠٠/١)، تفسير النيسابوري (١٦٩/٤)، اللّباب لابن عادل (٣٢٨/١١)، الدر المنثور (٤٨٦/٨، ٥٤٧)، الناسخ والمنسوخ للكرمي ص (١٢٧)، فتح القدير (٩٢/٣)، روح المعاني (١٧٩/١٣)، التحرير والتنوير (١٧٧/١٣).

قولـه تعـالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ إبراهيم/٤٨.

١٠٤- قال الكِرْمانيّ: وعن عبد الله بن الزبير (يَوْمَ تَبَدَّلُ) بفتْح التاء [١].

(١) شواذّ القراءات ص (٢٦٣).

دراسة الأثر:

قُرِئَ قوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ** ﴾ بعدَّة أوجُهٍ، وهي:

١- (يَوْمَ تُبَدَّلُ) بضمّ التاء، وفتح الدّال، وهو قراءةُ الجمهور.

٢- (يَوْمَ تَبَدَّلُ) بفتح التاء والدّال، وهو مخفّفٌ من (تَتَبَدَّلُ)، تَبَدَّلَ الشيءُ الشيءَ: اتَّخَذَه منه بدَلاً، رُوِي عن ابن الزبير ﷺ.

٣- (يَوْمَ نُبَدِّلُ) بالنون، وكسْر الدّال، رُوِي عن عاصم.

والاختيار: الوجه الأول؛ فهو قراءة سبعيّة مُتواترة، وما عداه شاذٌّ، لم يُقْرَأْ به في العشْر.

انظر: القراءات الشاذّة ص (٧٠)، شواذّ القراءات للكرماني ص (٢٦٣)، لسان العرب (بدل) (٤٨/١١)، القاموس المحيط (بدل) ص (١٢٤٧).

○○○○○

سورة الحجر

١٠٥- قال السيوطيّ: وأخرَجَ ابنُ مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: نزلَتْ سورةُ الحِجْر بمكَّة (١).

(١) الدر المنثور (٨/٥٨٤)، وانظر: فتح القدير (٣/١٢٠)، روح المعاني (١٤/٢).

دراسة الأثر:

لا خِلافَ بين المفسّرين في مكية سورة الحِجْر، لكن هل هي مكيّة كلّها أم فيها آيات مدنيّة اختَلفُوا فيه على أقوال، وهي:

القول الأول: أنّها مكيّة كلّها، رُوِيَ عن ابن الزبير وابن عباس – رضي الله عنهما –، وقتادة ومجاهد.

القول الثاني: أنّها مكيّة إلاّ آية، وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ (الحجر: ٨٧)، فهي مدنيّة، رُوِيَ عن الحسن والكلبي.

والسبب في ذلك أنّ المراد بالسبع المثاني عندهم السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال والتوبة معاً، وأغلَبُ هذه السُوَر مدنيّ، فدلَّ على أنّ هذه الآية أيضاً مدنيّة؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى ﴾ يدلُّ على تقدُّم نزول السبع الطّوال عن هذه الآية.

ورُدَّ ذلك بأنّ الراجح من أقوال أهل العلم أنّ المراد بالسبع المثاني سورة الفاتحة؛ لما يلي:

أ- ما أخرَجَه البخاريّ في صحيحه من حديث أبي سعيد بن المعَلَّى ﷺ عن النبيّ ﷺ قال: "ألاَ أُعَلِّمُكَ أعظَمَ سورةٍ في القرآن قبل أن أخرُجَ من المسْجد؟ ثمّ ذهَبَ النبيّ ﷺ؛ ليَخرُجَ من المسجد، فذَكَّرْتُه، فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، هي السَّبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أُوتِيْتُه".

صحيح البخاري/ كتاب: التفسير/ باب: قوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾/ رقم (٤٤٢٦).

ب- ما أخرجَه البخاريّ من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال النبيّ ﷺ: "أُمُّ القرآنِ هي السَّبْعُ المَثَاني، والقرآنُ العظيم".

صحيح البخاري/ كتاب: التفسير/ باب: قوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾/ رقم (٤٤٢٧).

قال الشنقيطيّ بعدَ أن ذكرَ الحديثَيْنِ: "فهذا نصٌّ من النبيّ ﷺ أنّ المراد بالسبْع المثاني، والقرآن العظيم فاتحةُ الكتاب، وبه تُعلَم أنّ قولَ من قال: (إنّها السَّبْع الطِّوال) غيرُ صحيح؛ إذ لا كلامَ لأحدٍ معه ﷺ". اهـ.

أضواء البيان (٢/٣١٥)

وقيل: استُثْنِيَتْ هذه الآيةُ بناءً على أنّ المراد بالسَّبْع المثاني سورةُ الفاتِحَة على أنّ الفاتحة مدنيّة.

ورُدَّ ذلك بأنّ الأصَحَّ، والذي عليه جمهورُ أهل العلم أنّ سورة الفاتِحة مكيّة؛ لما أخرَجَه الشيخانِ من حديث عبادة بن الصامت ﷺ أنّ رسولَ الله ﷺ قال: "لا صلاةَ لمنْ لم يقْرَأْ بفاتِحةِ الكتاب".

صحيح البخاري/ كتاب: الأذان/ باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم/ رقم (٧٢٣)، صحيح مسلم/ كتاب: الصلاة/ باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة/ رقم (٣٩٤).

فلمّا كان فرضُ الصلاة بمكّة، وقراءةُ الفاتحة شرطٌ لصحّة الصلاة دلَّ على نزولها بمكّة؛ إذ لا تُتَصَوَّرُ صلاةٌ بغير الفاتحة.

قال الفيروز آباديّ: "اختلف العلماء في موضع نزولها، فقيل: نزَلتْ بمكّة، وهو الصَّحيح؛ لأنّه لا يُعرَفُ في الإسلام صلاةٌ بغَير فاتِحةِ الكتاب". اهـ.

بصائر ذوي التمييز (١/١٢٨)

القول الثالث: أنها مكيّة إلاّ آيتَينِ، وهما قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ (الحجر: ٩٠- ٩١)، فهما مدنيّتان، رُوِي عن الحسن.

والسبب في ذلك هو تفسيرُ ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ بأهل الكتاب، فقد أخرَجَ البخاريّ بسنده عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ قال: هم أهلُ الكتاب، جَزَّؤُوه أجزاءً، فآمنُوا ببَعضِه، وكفَرُوا ببَعضِه.

صحيح البخاري/ كتاب: التفسير/ باب: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾/ رقم (٤٤٢٨).

ويمكنُ الجوابُ عنه: أنّه ليسَ فيه تصريحٌ بنزول هذه الآية في أهل الكتاب، ثمّ لا يلزَم من كون المراد بها أهلُ الكتاب نزولُها بالمدينة، فقد كانتْ للمشركين علاقةٌ باليهود قبل هجْرة النبيّ ﷺ إلى المدينة، وكانوا يستَشيرون يهُودَ المدينة فيما أهمَّهم من الأمور.

قال ابنُ عاشور: "ولو سُلِّمَ هذا التفسيرُ من جِهَتَيْهِ فقد يكونُ؛ لأنّ اليهُود سمِعُوا القرآنَ قبل هِجْرة النبيّ ﷺ بقليلٍ، فقالوا ذلك حينئذٍ؛ على أنّه قد رُوِي أن قُريشاً لمّا أهمَّهم أمرُ النبيّ ﷺ استَشَارُوا في أمره يهُودَ المدينَة". اهـ.

التحرير والتنوير (١٤/٦)

ورُوِي عن ابن عباس ﷺ أنّ المراد بهم جماعةٌ من كفّار مكّة اقْتَسَمُوا القرآنَ، فقال بعضُهم: سِحْر، وقال بعضُهم: شِعْر، وقال بعضُهم: كَهانَة، وقال بعضُهم: كَذِبٌ، وقال بعضُهم: أساطيرُ الأوّلين، وفيهم أنزَلَ الله ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾.

أخرجَه ابن إسحاق في السيرة (٢/١٣١) رقم (١٩٦) من طريق محمد بن أبي محمد، وذكرَ ابنُ كثير هذا الطريق في تفسيره (١/٣٣١) معَ طرُقٍ أخرى، وقال: "وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس". اهـ.

وفيه تصريحٌ بنزول الآية في الكفّار، كما أنّه أنْسَبُ لسِياق الآية؛ لأنّ السياق سياقُ الإنذار لمن كذَّب بالقرآن، والتطمين للنبيّ ﷺ.

القول الرابع: أنّها مكيّة إلاّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ (الحجر: ٢٤)، فهي مدنيّة، ومالَ إليه السيوطيّ في الإتقان.

وذلك لما أخرَجَه الترمذيّ من طريق نوح بن قَيس الجُذَاميّ عن أبي الجَوزَاء عن ابن عبّاس ﷺ قال: كانتْ امرأةٌ تُصلِّي خلفَ رسول الله ﷺ حَسْناء من أحسَنِ النِّساء، فكان بعضُ القوم يتَقَدَّم حتّى يكونَ في الصفِّ الأوّل لِئَلاَّ يرَاها، ويستَأْخِر بعضُهم حتّى يكونَ في الصفِّ المؤَخَّر، فإذا رَكَعَ نظَرَ من تَحتِ إبطَيْهِ، فأنزَلَ الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾.

سنن الترمذي/ كتاب: تفسير القرآن/ باب: ومن سورة الحجر/ رقم (٣١٢٢)، قال الترمذيّ: "ورَوَى جَعفَر

ابن سُلَيمان هذا الحديثَ عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء نحوه، ولم يذكُرْ فيه: (عن ابن عباس)، وهذا أشبَهُ أن يكونَ أصحَّ من حديث نوح". اهـ.

وأخرجَه الطيالسيّ في المسند ص (٣٥٤) رقم (٢٧١٢)، أحمد في المسند (٣٠٥/١) رقم (٢٧٨٤)، ابن ماجه في السنن/ كتاب: إقامة الصلاة/ باب: الخشوع في الصلاة/ رقم (١٠٤٦)، النسائيّ في المجتبى/ كتاب: الإمامة/ باب: المنفرد خلف الصف/ رقم (٨٧٠)، الطبريّ في تفسيره (٩٤/١٧)، ابن حبان في صحيحه (١٢٦/٢) رقم (٤٠١)، الطبرانيّ في المعجم الكبير (١٧١/١٢) رقم (١٢٧٩١)، الحاكم في المستدرك (٣٨٤/٢) رقم (٣٣٤٦)، وصحَّحَه، أبو نعيم في حلية الأولياء (٨١/٣)، البيهقيّ في السنن الكبرى (٩٨/٣) رقم (٤٩٥٠).

قال ابنُ كثير بعد إيراده لهذه الرواية: "وهذا الحديث فيه نكارَةٌ شديدَةٌ، وقد رواه عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن عمرو بن مالك، وهو النُّكْري أنّه سمِعَ أبا الجوزاء يقول في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ في الصّفوف في الصلاة، (وَالْمُسْتَأْخِرِينَ)، فالظاهر أنّه من كلام أبي الجوزاء فقط، ليسَ فيه لابن عباس ذكر". اهـ.

تفسير ابن كثير (٥٣٢/٤)، وأخرجَه عبد الرزاق في تفسيره (٣٤٨/١).

قال ابن عاشور عن هذه الرواية: "وهو خبر واهٍ لا يلُاقي انتظامَ هذه الآيات، ولا يكون إلاّ من التفاسير الضعيفة". اهـ.

التحرير والتنوير (٤٠/١٤)

كما أنّ من وجه تضعيف هذه الرواية: الطّعن في أصحاب المصطفى ﷺ بهذا الظن السيِّئ بهم، وهم من هم في رفعتهم، ومكانتهم، وخُلوص قلوبهم.

قال الثعالبيّ: "والحديث المتقدّم إن صحَّ فلا بدّ من تأويله؛ فإنّ الصّحابة ينُزَّهون عن فعل ما ذُكِرَ فيه، فيُؤَوَّل بأنّ ذلك صدَرَ من بعضِ المنافقين، أو بعض الأعراب الذين قرُبَ عهدُهم بالإسلام ولم يرسَخِ الإيمانُ في قلوبهم، وأمّا ابن عباس فإنّه كان يومئذٍ صغيراً بلا شكّ، هذا إن كانت الآية مدنيّة، فإن كانت مكيّة فهو يومئذٍ في سنّ الطُّفوليّة، وبالجملة فالظاهر ضعْف هذا الحديث من وجوه". اهـ.

تفسير الثعالبي (٢٩٣/٢)

وأخرَجَ الطبريّ عن ابن عباس ﷺ أنّ المراد بـ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾: كلُّ من هلَكَ من لدُن آدم عليه السلام، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾: من هو حيٌّ، ومن سيأتي إلى يوم القيامة.

تفسير الطبري (٩١/١٧)، وإسناده حسن، وذكرَه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢٢٦٢/٧) رقم (١٢٣٦٤، ١٢٣٦٥)، ابن كثير في تفسيره (٥٣٢/٤).

وهو قولُ جمهور المفسّرين، واختارَه الطبريّ؛ لكونه هو الأنْسَبَ للسِّياق.

قال الطبريّ: "وأَولَى الأقوال عندي في ذلك بالصّحّة قولُ من قال: معنى ذلك: ولقد علِمْنا الأمواتَ منكم يا بني آدم، فتقدَّم موتُه، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾: الذين استأْخَرَ موتُهم ممّن هو حيّ، ومن هو حادثٌ منكم ممّن لم يحدُثْ بعد؛ لدلالة ما قبله من الكلام، وهو قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ (الحجر: ٢٣)، وما بعده، وهو قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الحجر: ٢٥)، على أنّ ذلك كذلك؛ إذْ كان بين هذين الخبرين، ولم يَجْرِ قبل ذلك من الكلام ما يدلُّ على خلافه، ولا جاء بعد". اهـ.

تفسير الطبري (٩٤/١٧)

والرّاجح – والله أعلَم –: أنّها مكيّة كلّها، كما رُوِي عن ابن الزبير ﷺ؛ فهو قولُ جمهور المفسّرين، ولأنّ القول بالاستثناء – كما سبقَ – ضعيف.

قال ابنُ أبي زمنين: "وهي مكيّة كلّها". اهـ.

تفسير ابن أبي زمنين (٣٧٩/٢)

انظر: الناسخ والمنسوخ للنحّاس ص (٥٣٩)، تفسير الماوردي (١٤٧/٣)، تفسير البغوي (٣٦٤/٤)، تفسير الرازي (١٢٠/١٩)، تفسير ابن كثير (٥٢٤/٤)، الدر المنثور (٥٨٤/٨)، الإتقان في علوم القرآن (٤٩/١)، روح المعاني (٢/١٤)، التحرير والتنوير (٥/١٤).

قولـه تعـالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ الحجر/٤٩- ٥٠.

١٠٦- قال البَزَّار: حدثنا الوَلِيد بن عَمْرو بن سُكَيْن (١) قال: حدثنا محمد بن الزِّبرِقَان (٢) قال: حدَّثنا مُوسى بن عُبَيدَة (٣) عن مُصْعَب بن ثابِت (٤) عن عبدِ الله بن الزبير أنَّ النَّبي ﷺ مَرَّ بقومٍ يَضْحَكُون، فقال: أتَضْحَكُون وذُكِرَ الجنَّةُ والنَّارُ بين أظهُرِكم؟ قال: فمَا رُئِيَ أحدٌ منهم ضاحِكاً حتّى ماتَ، قال: ونزلتْ فيهم ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ (٥).

دراسة الإسناد:

(١) الوَلِيد بن عَمْرو بن السُّكَين، ويُقال: يزيد الضُّبَعِيّ، أبو العبَّاس البَصْرِيّ، روى له ابن ماجه، قال النسائيّ: "لا بأسَ به"، قال الذهبيّ: "ثقة"، قال ابن حجر: "صدوق".

انظر: تهذيب الكمال (٦٣/٣١) رقم (٦٧٢٦)، الكاشف (٣٥٣/٢) رقم (٦٠٨٣)، التقريب رقم (٧٤٤٥).

(٢) محمد بن الزِّبرِقَان، أبو هَمَّام الأَهوَازيّ، روى له الجماعة إلاّ الترمِذيّ، قال ابن المديني: "ثقة"، قال أبو حاتم: "صالح الحديث، صدوق"، قال ابن حجر: "صدوق، رُبَّما وَهِم".

انظر: الجرح والتعديل (٢٦٠/٧) رقم (١٤١٩)، تهذيب الكمال (٢٠٨/٢٥) رقم (٥٢١٨)، التقريب رقم (٥٨٨٤).

(٣) مُوسَى بن عُبَيدَة بن نَشِيط الرَّبَذِيّ، أبو عبد العزيز المَدَنيّ، توفي سنة ثلاث وخمسين ومائة، روى له الترمذيّ وابن ماجه، قال أبو حاتم: "مُنكَر الحديث"، قال أبو زُرعة: "ليس بقويّ الحديث"، قال ابن حجر: "ضعيف".

انظر: الجرح والتعديل (١٥١/٨) رقم (٦٨٦)، تهذيب الكمال (١٠٤/٢٩) رقم (٦٢٨٠)، التقريب رقم (٦٩٨٩).

(٤) مُصْعَب بن ثابِت بن عبد الله بن الزبير القُرَشِيّ، لَيِّنُ الحَديث، تقدَّم في الأثر (٦٥).

درجة الإسناد:

إسناده ضعيف؛ لضَعْف محمد بن الزبرقان، ومُوسَى بن عُبَيدَة، ومُصْعَب بن ثابِت، كما فيه انقطاع بين مُصْعَب وبين ابن الزبير ﷺ.

(٥) مسند البزّار (١٧٤/٦) رقم (٢٢١٦)، وقال البزّار: "وهذا الحديثُ لا نعلَمُ أحَداً يَروِيهِ بهذا اللفظ عن النّبيّ ﷺ إلاّ ابنَ الزبير، ولا نعلَمُ له طريقاً إلاّ هذا الطريق، ولا نعلَمُ أنَّ مُصْعَباً بن ثابِت سمِعَ من ابنِ الزبير". اهـ.

وأخرَجَه الطبرانيّ في المعجم الكبير (١٠٤/١٣) رقم (٢٤٨) من طريق الوليد بن عمرو بن سكين به بمعناه، وذكرَه الهيثميّ في مجمع الزوائد (٤٥/٧)، وعزاه للطبرانيّ، وقال: "وفيه مُوسى بن عُبَيدَة، وهو ضعيف". اهـ.

وذكرَه السيوطيّ في الدر المنثور (٦٣١/٨)، وعزاه للبزَّار والطبراني وابن مردويه، السيوطيّ في لباب النقول ص (١٣٢)، وعزاه للطبراني.

دراسة الأثر:

ما رواه مُصْعَب بن ثابت عن ابن الزبير ﷺ في سبب نزول هذه الآية رُوِي معناه عن مُصْعب، فقد أورَدَ ابن كثير في تفسيره (٥٤٠/٤)، وعزاه لابن أبي حاتم من طريق موسى بن عُبَيدة عن مُصعَب بن ثابت قال: مرَّ رسولُ الله ﷺ على ناسٍ من أصحابه يضْحَكُون، فقال: "اذْكُرُوا الجنّة، واذْكُرُوا النّار"، فنزلتْ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ (الحجر: ٤٩- ٥٠).

قال ابن كثير: "وهو مرسل". اهـ.

وأخرَجَ الطبريّ من طريق مُصعَب بن ثابت عن عاصم بن عبد الله عن عطاء بن أبي رباح عن رجُلٍ من أصحاب النبيّ ﷺ قال: طلَعَ علينا رسولُ الله ﷺ من الباب الذي يدخُلُ منه بنو شيبة، فقال: "ألاَ أراكُم تضْحَكُون؟"، ثمّ أدْبَرَ حتَّى إذا كان عند الحِجْر رجَعَ إلينا القَهْقَرى، فقال: "إني لما خرجتُ جاء جبريلُ عليه السلام، فقال: يا محمّدُ، إنّ الله يقولُ لِمَ تُقَنِّطُ عبادِي؟ ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾.

تفسير الطبري (١١١/١٧)، إسناده ضعيف؛ لضعْف مُصْعب.

وأخرَجَه ابن المبارك في الزهد (٣١٢/١) رقم (٨٩٢)، أبو نعيم في معرفة الصحابة (٣١٦٠/٦) رقم (٧٢٧٤).

والصَّواب – والله أعلَم –: أنّ الآيتَينِ توكيدٌ لما ذُكِر في الآيات السابقة؛ فقد ذكَرَ الله ﷻ فيها الجنّة والنّار، وهذا يدُلُّ على أنّ هاتَينِ الآيتَينِ مع ما قبلَهما في سياقٍ واحدٍ، وليسَ لهما سبب معيّن.

قال النَّسفيّ: "ولما أتَمَّ ذكرَ الوعْد والوعيد أتبَعَه ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ تقريراً لما ذُكِر، وتمكيناً له في النُّفوس". اهـ.

تفسير النسفي (٢٧٤/٢)

ويُقَوِّي عدمَ نزولَ الآيتَينِ في تلك القصّة ما أخرَجَه البخاريّ من حديث أبي هريرة ﷺ قال: خرَجَ النبيّ ﷺ على رهْطٍ من أصحابه يضْحَكُون، ويتَحدَّثون، فقال: "والذي نفسي بيدِه، لو تعلمُونَ ما أعلَمُ لضَحِكْتُم قليلاً، ولبَكَيْتُم كثيراً، ثمّ انصَرَفَ، وأبْكَى القومَ، وأوحَى اللهُ ﷻ إليه: يا محمَّدُ، لم تُقنِّطُ عبادي، فرجَعَ النّبيّ ﷺ، فقال: "أبْشِرُوا، وسَدِّدُوا، وقارِبُوا".

الأدب المفرد ص (٩٨) رقم (٢٥٤)، وصحَّحَه الألبانيّ.

انظر: صحيح الأدب المفرد ص (١١٢) رقم (١٩١).

وأخرَجَه ابن حبّان في صحيحه (٣١٩/١) رقم (١١٣)، قال شعيب الأرنؤوط: "إسناده صحيح على شرط مسلم". اهـ.

وأخرجَه البهيقيّ في شعب الإيمان (٢٢/٢) رقم (١٠٥٨)، كلُّهم بدون ذكر الآيتَينِ.

انظر: تفسير الطبري (١١١/١٧)، الكشف والبيان (٣٤٣/٥)، تفسير الماوردي (١٦٣/٣)، أسباب النزول للواحدي ص (١٨٧)، تفسير السمعاني (١٤٢/٣)، تفسير البغوي (٣٨٣/٤)، زاد المسير (٤٠٤/٤)، تفسير الرازي (١٥٥/١٩)، تفسير القرطبي (٣٤/١٠)، تفسير الخازن (٦٨/٤)، تفسير ابن كثير (٥٣٩/٤)، الدر المنثور (٦٣١/٨)، لباب النقول ص (١٣٢)، فتح القدير (١٣٦/٣).

○○○○○

سورة النّحل

١٠٧- قال السيوطيّ: أخرَجَ ابنُ مردَويه عن ابن عباس قال: نزلتْ سورة النحل بمكّة، وأخرَجَ ابنُ مردَويه عن ابن الزبير مثلَه (١).

(١) الدر المنثور (٥/٩)، وانظر: فتح القدير (١٤٦/٣)، روح المعاني (٨٩/١٤)، التحرير والتنوير (٩٣/١٤).

دراسة الأثر:

سورة النحل مكيّة أم مدنيّة، وعلى القول بمكيّتها أو مدنيّتها هل كلّها كذلك أم فيها استثناء اختَلفَ فيه المفسّرون على أقوال، وهي:

القول الأول: أنّها مكيّة كلّها، رُوِي عن ابن الزبير وابن عباس - رضي الله عنهما -، والحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد.

القول الثاني: أنّها مدنيّة كلّها، رُوِي عن قتادة.

القول الثالث: أنّها مكيّة سوى ثلاث آياتٍ، فهي مدنية، على خلافٍ بينهم في هذه الآيات:

- قيل: هي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (النحل: ١٢٦- ١٢٨)، فإنّها نزلتْ بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة ﷺ وقَتْلى أُحُد، رُوِي عن ابن عباس ﷺ، وعطاء بن يسار والشعبي.

وذلك لما أخرَجَه الترمذيّ بسنده عن أُبيّ بن كعب ﷺ قال: لما كان يومُ أُحُد أُصِيبَ من الأنصار أربعةٌ وستّون رجُلاً، ومن المهاجرين ستّةٌ فيهم حمزة، فمَثَّلُوا بهم، فقالتِ الأنصار: لئِنْ أصَبْنا منهم يوماً مثل هذا لنُرْبِيَنَّ عليهم، قال: فلمّا كان يومُ فتح مكّة فأنزَلَ الله ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾.

سنن الترمذي/ كتاب: تفسير القرآن/ باب: ومن سورة النحل/ رقم (٣١٢٩)، قال الألبانيّ: "حسن، صحيح الإسناد". اهـ.
صحيح سنن الترمذي (٢٦٥/٣) رقم (٣١٢٩)
وأخرجه أحمد في المسند (١٣٥/٥) رقم (٢١٢٦٧)، النسائيّ في السنن الكبرى (٣٧٦/٦) رقم (١١٢٧٩)، ابن حبّان في صحيحه (٢٣٩/٢) رقم (٤٨٧)، الطبرانيّ في المعجم الكبير (١٤٣/٣) رقم (٢٩٣٨)، الحاكم في المستدرك (٣٩١/٢) رقم (٣٣٦٨)، وصحَّحَه، ووافقَه الذهبيّ، البيهقيّ في شعب الإيمان (١٢٠/٧) رقم (٩٧٠٤)، البيهقيّ في دلائل النبوّة (٢٨٩/٣)، الضياء المقدسيّ في الأحاديث المختارة (٣٥٠/٣) رقم (١١٤٣).

فدلَّ على مدنيّة هذه الآيات؛ لكونها نزلتْ بعد الهِجْرة.

- وقيل: هي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية إلى قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٥- ٩٧)، نزلتْ بالمدينة في رجُلَينِ رَبيعة بن عَبدان وامرئ القيْس بن عابِس الكِنْديّ، اخْتَصَما إلى رسول الله ﷺ في أرضٍ، رُوِي عن ابن عباس ﷺ.

والجواب عنه: أنّ القصّة أخرَجَها مسلم في صحيحه، وليسَ فيها ذكرٌ للآيات، وهذا يُضعِّف نزولَها في تلك القصّة.

انظر: صحيح مسلم/ كتاب: الإيمان/ باب: وعيد من اقتطع حقّ مسلم بيمين فاجرة/ رقم (١٣٩).

القول الرابع: أنّها مكيّة إلاّ خمس آيات، فهي مدنية، على خلافٍ بينهم في هذه الآيات:

- قيل: هي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٥- ٩٦)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ الآية إلى آخر السورة (النحل: ١٢٦- ١٢٨)، رُوِي عن قتادة.

- قيل: هي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾ الآية (النحل: ٤١)، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ﴾ الآية (النحل: ١١٠)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ الآية إلى آخر السورة (النحل: ١٢٦- ١٢٨)، رُوِي عن ابن السائب.

ولعلّ السبب في استثناء قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾ ما رُوِي عن ابن عباس ﷺ قال: إنّهم قومٌ من أهل مكّة هاجَرُوا إلى رسول الله ﷺ بعد ما ظلَمَهم المشركون.

أخرَجَه الطبريّ في تفسيره (٢٠٦/١٧) من طريق عطيّة العوفي، قال أحمد شاكر: "وهو إسنادٌ مسلسلٌ بالضعفاء من أسرةٍ واحدةٍ إن صحَّ هذا التعبير". اهـ.

انظر: تفسير الطبري (٢٦٣/١) هامش رقم (١).

والذي عليه جمهورُ المفسرين هو أنّ المراد بالهجْرة فيها الهجْرة إلى الحَبَشَة، وهو الأنسَبُ لسياق الآية، ورُوِي ذلك عن قتادة.

أخرجَه الطبريّ في تفسيره (٢٠٥/١٧)، وذكرَه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢٢٨٤/٧) رقم (١٢٥١٨).

أمّا الهجْرة إلى المدينة فكانتْ بعد نزول هذه الآية.

قال ابنُ عطيّة: "لما ذكَرَ الله تعالى كفّار مكة الذين أقسموا أنّ الله لا يبعثُ من يموت، ورَدَّ على قولهم ذكرَ مؤمني مكة المعاصرينَ لهم، وهم الذين هاجرُوا إلى أرض الحبشة، هذا قولُ الجمهور، وهو الصحيح في سبب الآية؛ لأنّ هجْرة المدينة لم تكنْ وقتَ نزول الآية". اهـ.

المحرر الوجيز (٣٩٤/٣)

والسببُ في استثناء قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ﴾ ما رُوِي عن ابن عباس ﷺ قال: كان ناسٌ من أهل مكّة قد أسلمُوا، وكانوا مُستَخفينَ بالإسلام، فلمّا خرَجَ المشركون إلى بدْر أخرَجُوهم مُكْرَهينَ، فأُصِيبَ بعضُهم يوم بدْر مع المشركين، فقال المسلمون: أصحابُنا هؤلاء مسلمون أخرَجُوهم مُكْرَهينَ، فاستغْفِرُوا لهم، فنزلتْ هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية (النساء: ٩٧)، فكَتَبَ المسلمون إلى من بقِيَ منهم بمكّة بهذه الآية، فخرَجُوا حتّى إذا كانوا ببعض الطريق ظهَرَ عليهم المشركون وعلى خروجهم، فلحِقُوهم، فرَدُّوهم، فرجَعُوا معهم، فنزلتْ هذه الآية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ (العنكبوت: ١٠)، فكتبَ المسلمون إليهم بذلك، فحزِنُوا، فنزلتْ هذه الآية: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ﴾ الآية، فكَتبُوا إليهم بذلك.

أخرجَه الطبريّ في تفسيره (١٠٢/٩) رقم (١٠٢٦٠)، وذكرَه الهيثميّ في مجمع الزوائد (٩/٧)، وقال: "رَوَى البخاريّ بعضَه، رواه البزّار، ورجاله رجالُ الصحيح غير محمد بن شَريك، وهو ثقة". اهـ.

فدلَّ على أنّها مدنيّة؛ لكونها نزلتْ بعد آية النساء، والنساء مدنيّة.

القول الخامس: أنّها مكيّة إلاّ سبع آيات، فهي مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ (النحل: ٤١)، وقوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ﴾ الآية (النحل: ١٠٦)، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ﴾ الآية (النحل: ١١٠)، وقوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ ﴾ الآية (النحل: ١١٢)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ ﴾ الآية إلى آخر السورة (النحل: ١٢٦- ١٢٨)، رُوِي عن مقاتل.

ويبدُو أنّ السبَب في استثناء قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ﴾ ما رُوِي عن مجاهد أنّها نزلتْ في أُناسٍ بقُوا في مكّة بعد إيمانهم، فكتَبَ إليهم بعضُ الصحابة: لا نراكم منّا حتّى تُهاجِرُوا، فخرَجُوا يريدُون المدينة، فأدْرَكَتْهم قريش في الطريق، ففَتَنُوهم عن دينهم، فكفَرُوا كارهينَ.

أخرجَه الطبريّ في تفسيره (٣٠٦/١٧)، وذكرَه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢٣٠٤/٧) رقم (١٢٦٦٩).

وردَّ عليه الخازن بقوله: "وهذا القولُ ضعيف؛ لأنّ الآية مكيّة، وكان هذا في أوّل الإسلام قبل أن يُؤْمَرُوا بالهِجْرة". اهـ.

تفسير الخازن (١١٧/٤)

قال ابن حجر: "والمشهور أنّ الآية المذكورة نزلتْ في عمّار بن ياسر، كما جاء من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: أخَذَ المشركون عمّاراً، فعذَّبُوه حتّى قاربَهم في بعض ما أرادُوا، فشَكَى ذلك إلى النّبي ﷺ، فقال له: (كيفَ تجِدُ قلبَك)؟ قال: مطمئنّاً بالإيمان، قال: (فإن عادُوا فعُدْ)، وهو مُرسَل، ورجالُه ثِقات". اهـ.

فتح الباري (٣١٢/١٢)

وأمّا قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ ﴾ فالظاهر في سبب استثنائه ما رواه العوفيّ عن ابن عباس ﷺ أنّ المراد بالقرية هنا مكّة.

انظر: تفسير الطبري (٣٠٩/١٧)، والعوفيّ ضعيف.

والنّكِرة في قوله تعالى: ﴿قَرۡيَةٗ ﴾ تُقوّي أنّ المراد بها قرية غير مُعيَّنة.

قال الشوكانيّ: "وقد اختلفَ المفسّرون هل المراد بهذه القرية قرية معيَّنة، أو المراد قرية غير معيَّنة، بل كلّ قومٍ أنعَمَ الله عليهم فأبطرَتْهم النِّعمة؟ فذهبَ الأكثر إلى الأوّل، وصرَّحُوا بأنّها مكّة ...، والثاني أرجَحُ؛ لأنَّ تنكيرَ قرية يُفيدُ ذلك، ومكّة تدخُلُ في هذا العُمُوم البدليّ دخولاً أوليّاً". اهـ.

فتح القدير (١٩٩/٣)

وبالتالي دعوي مدنيّة هذه الآية غيرُ صحيحٍ.

القول السادس: أنّها من أولها إلى صدر قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ (النحل: ٤١) مكيّة، وباقيها نزَلَ بالمدينة، رُوِي عن قتادة وجابر بن زيد.

ورُدَّ ذلك بأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ (النحل: ٩٠) نزلَ في قصّة عثمان بن مظعون ﷺ مع رسول الله ﷺ بمكّة قبل الهجرة، كما جاءَ مُصرَّحاً به فيما أخرَجَه أحمد وغيره.

انظر: مسند أحمد (٣١٨/١) رقم (٢٩٢٢)، وأخرجَه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١٧٤/١)، البخاريّ في الأدب المفرد ص (٣٠٧) رقم (٨٩٣)، الطبرانيّ في المعجم الكبير (٣٩/٩) رقم (٨٣٢٢)، كلُّهم من طريق شهْر بن حَوْشَب، وذكرَه ابن كثير في تفسيره (٥٩٧/٤)، وقال: "إسناد جيد متّصل حسن، قد بُيِّن فيه السّماع المتّصل". اهـ.

وذكرَه الهيثميّ في مجمع الزوائد (٤٨/٧)، وعزاه لأحمد والطبراني، وقال: "و(شَهْر) وثَّقَه أحمد وجماعة، وفيه ضعْفٌ لا يضُرُّ، وبقيّة رجاله ثقات". اهـ.

وهذا يدُلّ على أنّها مكيّة، وبالتالي تضعُف دعوى مدنيّة جميع هذه الآيات.

والرّاجح – والله أعلم –: أنّ السورة مكيّة إلاّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ الآية؛ لما سبقَ من الدليل الصحيح على استثنائه.

قال ابنُ عطيّة: "وهذه الآية مدنيّة، ولا أعلمُ في ذلك خلافاً، وإن وُجِد فهو ضعيف". اهـ.

المحرر الوجيز (٤٢٥/٣)

وأمّا الآيات الثلاث من آخر السورة فهي ممّا تكرَّرَ نزولهُ، فنزلتْ بمكّة قبل الهجرة، ثمّ تكرَّر نزولُها بعد الهجرة؛ وذلك لأنّ قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ (النحل: ١٢٧) تضمَّنَ تسلِيةَ النبيّ ﷺ، وأمْرَه بالصبر، وعدم الحزن على ما يُواجِهُه ﷺ من كيد الكفار، ومكرهم، وهذا من خصائص القرآن المكّي، كما في قوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ (النمل: ٧٠)، وسورة النمل مكيّة.

ويدلُّ على تكرّر نزولها بعد الهجرة ما رواه الترمذيّ وغيره من نزول هذه الآيات في شأن التمثيل بحمزة ﷺ، وقَتْلى أُحُد، كما سبقَ.

قال السيوطيّ: "صرَّح جماعةٌ من المتقدِّمين والمتأخِّرين بأنّ من القرآن ما تكرَّرَ نزولُه، قال ابنُ الحصار: قد يتكرَّر نزولُ الآية تذكيراً وموعظةً، وذكَر من ذلك خواتيمَ سورة النحل". اهـ.

الإتقان في علوم القرآن (١٠٤/١)

انظر: تفسير مقاتل (٢١٣/٢)، تفسير الطبري (٣٢٣/١٧)، معاني القرآن للنحّاس (٥٠/٤)، الناسخ والمنسوخ للنحّاس ص (٥٤١)، تفسير السمرقندي (٢٦٥/٢)، تفسير ابن أبي زمنين (٣٩٤/٢)، الناسخ والمنسوخ للمقري ص (١١٣)، البيان في عد آي القرآن ص (١٧٥)، تفسير الماوردي (١٧٧/٣)، تفسير السمعاني (١٥٨/٣)، زاد المسير (٤٢٥/٤)، تفسير الرازي (١٧٣/١٩)، تفسير القرطبي (٦٥/١٠)، تفسير الخازن (٧٨/٤)، تفسير البحر المحيط (٤٥٨/٥)، بصائر ذوي التمييز (٢٧٨/١)، اللّباب لابن عادل (٣/١٢)، الدر المنثور (٥/٩)، الناسخ والمنسوخ للكرمي ص (١٣٠)، فتح القدير (١٤٦/٣)، روح المعاني (٨٩/١٤)، التحرير والتنوير (٩٣/١٤).

○○○○○

سورة الإسراء

١٠٨- قال السيوطيّ: وأخرَجَ ابنُ مردويه عن ابن الزبير قال: نزلتْ سورةُ بني إسرائيل[١] بمكّة [٢].

---

(١) تُسَمّى هذه السورة سورة (بني إسرائيل).
انظر: الإتقان في علوم القرآن (١٥٣/١).
(٢) الدر المنثور (١٣٨/٩)، وانظر: فتح القدير (٢٠٥/٣)، روح المعاني (٢/١٥)، نيل المرام ص (٣٦٥).

دراسة الأثر:

لا خِلافَ بين المفسّرين في مكيّة سورة الإسراء، لكن هل هي مكية كلّها أم فيها آيات مدنيّة اختَلفُوا فيه على أقوال، وهي:

القول الأول: أنّها مكيّة كلّها، رُوِيَ عن ابن الزبير وابن عباس – رضي الله عنهما –, وهو قولُ جمهور المفسّرين.

القول الثاني: أنّها مكيّة إلاّ ثماني آيات، فهي مدنيّة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٧٣- ٧٥)، نزلتْ حين جاءَ وفدُ ثَقيف، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٧٦- ٨٠)، نزلتْ حين قالتِ اليهود: ليستْ هذه – المدينة – بأرض الأنبياء، رُوِي عن ابن عباس ﷺ، وقتادة.

وما رُوِي في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ الآية أنّها نزلتْ في وفد ثقيف أخرَجَه الطبريّ في تفسيره (٥٠٧/١٧) بسنده عن ابن عباس ﷺ، وفيه عطيّة العوفيّ، وهو ضعيف، وبالتالي دعوى مدنيّة هذه الآية ضعيفة، والصّوابُ – والله أعلم –: أنّها مكيّة كسائر الآيات، وهو الظاهر من مضمونها.

قال الطبريّ بعد أن رَوَى عدَّة أسباب لنزول هذه الآية: "والصّواب من القول في ذلك أن يُقال: إنّ الله تعالى ذكرُه أخبَرَ عن نبيّه ﷺ أنّ المشركين كادُوا أن يفتِنُوه عمّا أوحاه الله إليه؛ ليعْمَلَ بغيره، وذلك هو الافتراء على الله ...، ولا بيانَ في الكتاب ولا في خبَرٍ يقْطَعُ العُذرَ أيُّ ذلك كان، والاختلاف فيه موجود على ما ذكرنا، فلا شيءَ فيه أصْوَبُ من الإيمان بظاهره حتّى يأتِيَ خبرٌ يجِبُ التسليم له ببيان ما عُنِي بذلك منه". اهـ. تفسير الطبري (٥٠٧/١٧)

وما رُوِي في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية وما بعدها أنّه نزلَ في اليهود طلبُوا من الرسول ﷺ أن يترُكَ المدينة، ويذهبَ إلى الشّام؛ فهي أرضُ الأنبياء أوردَه ابنُ كثير في تفسيره من البيهقي، وقال: "وفي هذا الإسناد نظَر، والأظْهَر أنّ هذا ليسَ بصحيحٍ؛ فإنّ النبيّ ﷺ لم يغْزُ تبوكَ عن قول اليهود، إنّما غَزاها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾ (التوبة: ١٢٣)، وقوله تعالى:

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾

(التوبة: ٢٩)، وغزاها ليقتَصَّ ويَنتَقِم ممّن قتَلَ أهل مُؤْتَة من أصحابه، والله أعلم". اهـ.

تفسير ابن كثير (٥/١٠٠)، وانظر: دلائل النبوّة للبيهقي (٥/٢٥٤).

قال ابن كثير: "وهذا القولُ ضعيفٌ؛ لأنّ هذه الآية مكيّة، وسُكنَى المدينة بعد ذلك". اهـ.

تفسير ابن كثير (٥/١٠٠)

قال ابنُ عاشور: "ومن غريب التفسير أنّ المراد أنّ اليهود قالوا للنبيّ ﷺ: الْحَقْ بأرض الشام؛ فإنّها أرضُ الأنبياء، فصدَّقَ النبيّ ﷺ قولَهم، فغزَا غزوةَ تبوك لا يُريدُ إلاّ الشام، فلمَّا بلغَ تبُوكَ أنزَلَ الله هذه الآية، وهي روايةٌ باطلةٌ". اهـ.

التحرير والتنوير (١٥/١٨٠)

والصّواب – والله أعلم –: ما رُوِي عن قتادة في تفسير هذه الآية: أنّ أهل مكّة هَمُّوا بإخراج النبيّ ﷺ من مكّة، ولو فعلُوا ذلك لما توَطَّنُوا، ولكنّ الله كفَّهُم عن إخراجه حتّى أمرَه، ولقَلَّما مع ذلك لبِثُوا بعد خروج النبيّ ﷺ من مكّة حتّى بعثَ اللهُ عليهم القتْل يوم بدْر.

أخرَجَه عبد الرزاق في تفسيره (١/٣٨٣)، الطبريّ في تفسيره (١٧/٥١٠)، وذكرَه ابن أبي حاتم في تفسيره (٦/٢٣٤١) رقم (١٣٣٥٧).

ويُؤيِّدُه السياق؛ فهو خبرٌ عن قريش.

قال الطبريّ مُرجِّحاً لهذا القول: "وأَولَى القولَينِ في ذلك عندي بالصّواب قولُ قتادة ومجاهد؛ وذلك أنّ قوله: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ في سياق خبَر الله ﷻ عن قُرَيش، وذكره إيّاهم، ولم يجْرِ لليهود قبل ذلك ذكرٌ، فيُوَجَّه قولُه: ﴿وَإِن كَادُواْ﴾ إلى أنّه خبرٌ عنهم، فهو بأن يكونَ خبراً عمن جرَى له ذكر أَولَى من غيره". اهـ.

تفسير الطبري (١٧/٥١١)

القول الثالث: أنّها مكيّة إلاّ تسع آيات، فهي مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ﴾ الآية (الإسراء: ٦٠)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ ﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ (الإسراء: ٧٣- ٧٦)، وقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ ﴾ الآية (الإسراء: ٨٠)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ ﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾ (الإسراء: ١٠٧-١٠٩)، رُوِي عن مُقاتِل.

والسبب في استثناء قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ﴾ الآية ما رُوِي عن ابن عباس ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ ﴾ قال: هي رُؤْيَا رسولِ الله ﷺ أنّه يدخُلُ مكّة في سنة الحُدَيبِيَة، فرُدَّ، فافتَتَنَ المسلمون لذلك، فنزلتِ الآية.

أخرجَه الطبري في تفسيره (١٧/٤٨٣)، وفي إسناده عطيّة العوفيّ، وهو ضعيف.

قال القرطبيّ: "وفي هذا التأويل ضَعْفٌ؛ لأنّ السورة مكيّة، وتلك الرُّؤيا كانتْ بالمدينة". اهـ.
تفسير القرطبي (٢٨٢/١٠)

ورُوِي عن ابن عباس ﷺ قال: هي رُؤيا عينٍ أُرِيها رسولُ الله ﷺ ليلةَ أُسرِيَ به إلى بيت المقدس.

أخرَجَه البخاريّ في صحيحه/ كتاب: التفسير/ باب: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾/ رقم (٤٤٣٩)، وهو قولُ جمهور أهل العلم.

قال الطبريّ: "وأَولَى الأقوال في ذلك بالصّواب قولُ من قال: "عنَى به رُؤيا رسولَ الله ﷺ ما رَأَى من الآيات والعِبَر في طريقه إلى بيت المقدس، وبيتَ المقدس ليلة أُسرِيَ به ...، وإنّما قُلنا ذلك أولَى بالصّواب؛ لإجماع الحُجّة من أهل التأويل على أنّ هذه الآية إنّما نزلتْ في ذلك". اهـ.
تفسير الطبري (٤٨٣/١٧)

ولعلَّ السببَ في استثناء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ ما رُوِي عن مجاهد قال في تفسيره: هم ناسٌ من أهل الكتاب حين سمِعُوا ما أنزلَ الله على محمّد قالوا: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾، على أنّ المراد بهم عبد الله بن سَلاَم ﷺ وأمثاله ممّن آمن من أهل الكتاب بعد الهِجْرة.
أخرجه الطبريّ في تفسيره (٥٧٨/١٧)

والظاهر من مضمون الآيات أنّها نزلتْ بمكّة قبل إسلام عبد الله بن سَلاَم ﷺ، ففيها تسلِيةٌ للرسول ﷺ، وتقريعٌ بالكفّار على تكذيبهم بالقرآن، ويدخُل في عموم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ عبد الله بن سَلاَم ﷺ وغيره ممّن اتَّصَفَ بهذه الأوصاف.

قال ابنُ كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية (الأحقاف: ١٠): "وهذا الشاهد اسمُ جنسٍ يعُمُّ عبدَ الله بن سَلاَم ﷺ وغيره؛ فإنّ هذه الآية مكيّة نزلتْ قبل إسلام عبد الله بن سَلاَم ﷺ، وهذه كقوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ (القصص: ٥٣)، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ (الإسراء: ١٠٧- ١٠٨)". اهـ.
تفسير ابن كثير (٢٧٨/٧)

وعلى فرض صحّة القول أنّ المراد به عبد الله بن سَلاَم ﷺ وأمثاله يُحتَمل أن يكونَ ذلك إخباراً بما سيقَعُ في المستقبل، وبالتالي لا إشكالَ في مكيّة هذه الآيات.

قال ابنُ عاشور: "والمراد بـ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أمثالُ ورَقَة بن نَوفل؛ فقد تسامَعَ أهل مكّة بشهادته للنبيّ ﷺ، ومن آمنَ بعد نزول هذه السورة من مِثل: عبد الله بن سَلاَم، ومُعَيقيب، وسَلمان الفارسيّ؛ ففي هذه الآية إخبارٌ بمُغَيَّب". اهـ.
التحرير والتنوير (٢٣٣/١٥)

القول الرابع: أنّها مكيّة إلاّ خمس آيات، فهي مدنيّة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ الآية (الإسراء: ٢٦)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ الآية (الإسراء: ٣٢- ٣٣)، وقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ الآية (الإسراء: ٥٧)، وقوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ الآية (الإسراء: ٧٨)، رُوِي عن الحسن.

والسببُ في استثناء قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ ما أخرَجَه الطبريّ بسنده عن عليّ بن الحسين قال لرجُلٍ من أهل الشّام: أقرَأْتَ القرآنَ؟ قال: نعَمْ، قال: أفمَا قرَأْتَ في بني إسرائيل ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾؟ قال: وإنّكم لَلْقَرابة التي أمرَ اللهُ جلّ ثناؤُه أن يُؤتَى حقَّه؟ قال: نعَمْ.

تفسير الطبري (٤٢٦/١٧)، وفيه الصَّبَّاح بن يحيى المزَنِيّ، قال الذهبيّ في ميزان الاعتدال (٤٢٠/٣) رقم (٣٨٥٥): "متروك بل متَّهم". اهـ.

وأخرَجَ البزَّار بسنَده عن أبي سعيد قال: لما نزلتْ هذه الآية ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ دعَا رسولُ الله ﷺ فاطمة، فأعطاها فَدَك.

كشف الأستار (٥٥/٣) رقم (٢٢٢٣)، وأوردَه الهيثميّ في مجمع الزوائد (٤٩/٧)، وقال: "وفيه عطيّة العوفيّ، وهو ضعيف متروك". اهـ.

دلّتِ الروايتان على أنّ المراد بذي القربى في الآية قرابة الرسول ﷺ.

قال ابنُ كثير بعد أن أورَدَ روايةَ البزّار: "وهذا الحديثُ مُشكِلٌ لو صحَّ إسناده؛ لأنّ الآية مكيّة، وفَدَك إنّما فُتِحَتْ مع خَيْبَر سنة سبع من الهِجرة، فكيفَ يلْتَئِمُ هذا مع هذا؟ فهو إذاً حديث مُنكَر، والأشْبَه أنَّه من وضْع الرَّافِضَة، والله أعلم". اهـ.

تفسير ابن كثير (ط: مؤسسة قرطبة) (٦٩/٥)

قال الطبريّ مبيِّناً القولَ الصحيح في الآية: "وأَولَى التأويلَينِ عندي بالصّواب تأويلُ من تأوَّل ذلك أنّها بمعنى وصيّة الله عباده بصلة قرابات أنفُسهم وأرحامِهم من قِبَل آبائهم وأمّهاتهم؛ وذلك أن الله ﷻ عَقَّب ذلك عَقيب حَضِّه عبادَه على بِرِّ الآباء والأمَّهات، فالواجب أن يكون ذلك حَضّاً على صِلة أنسابهم دون أنساب غيرهم التي لم يَجْرِ لها ذكرٌ". اهـ.

تفسير الطبري (٤٢٧/١٧)

وأمّا قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ الآية فيبدُو أنّ السبب في استثناء الآيتَينِ ما فيهما من حُكم لا يَتناسَبُ إلاّ العَهد المدني.

قال ابنُ عاشور: "ولما رأى بعضُ المفسّرين أنّ الحُكم الذي تضمَّنَتْه هذه الآية لا يُناسِب إلاّ أحوالَ المسلمين الخالصين استبعَدَ أن تكونَ الآية نازلةً بمكّة، فزعَمَ أنّها مدنيّة". اهـ.

التحرير والتنوير (٩٦/١٥)

وهذه دعوى غيرُ صحيح؛ فقد جاءَ ما تضمَّنَتْه هاتانِ الآيتانِ من تشريعٍ في سورة الأنعام، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ (الأنعام: ١٥١)، وهي سورة مكيّة.

قال ابنُ عاشور مبيِّناً زمنَ نزول هذه الآيات: "ويظهَر أنّها نزلتْ في زمَنٍ كثُرتْ فيه جماعةُ المسلمين بمكّة، وأخَذَ التشريع المتعلِّق بمعاملات جماعتهم يتطَرَّقُ إلى نُفوسهم؛ فقد ذُكِرَتْ فيها أحكامٌ متتالِيَةٌ لم تُذكَرْ أمثالُ عددها في سورة مكيّة غيرِها عدا سورة الأنعام، وذلك من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلى قوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (الإسراء: ٢٣- ٣٨)". اهـ.

التحرير والتنوير (٦/١٥)

وأمّا قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ فلم أقفْ على ما يُمكنُ اعتبارُه سبباً لاستثنائه.

وقد أخرَجَ الشيخانِ من طريق أبي معمَر عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كان نفرٌ من الإنس يعبُدُون نفراً من الجنّ، فأسلَمَ النَّفرُ من الجنّ، واستَمْسَك الإنس بعبادتهم، فنزَلتْ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾.

صحيح البخاري/ كتاب: التفسير/ باب: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾/ رقم (٤٤٣٨)، صحيح مسلم/ كتاب: التفسير/ باب: في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾/ رقم (٣٠٣٠)، واللفظ لمسلم.

وأخرجه الطبري في تفسيره (١٧/٤٧٢)، ورجَّحَه، فقال: "وأَولَى الأقوال بتأويل هذه الآية قولُ عبد الله بن مسعود الذي رُوِّيْناه عن أبي معْمَر عنه ...". اهـ.

تفسير الطبري (١٧/٤٧٤)

وهذا يدُلُّ على أنّها نزلَتْ قبل الهِجْرة ردّاً على المشركين في عبادتهم الجنّ.

والرّاجح - والله أعلم -: أنَّها مكيّة كلّها، كما رُوِي عن ابن الزبير ﷺ؛ فهو قولُ جمهور المفسّرين، ولأنّ القول بالاستثناء - كما سبقَ - ضعيفٌ.

قال ابن أبي زمنين: "وهي مكيّة كلّها". اهـ.

تفسير ابن أبي زمنين (٣/٥)

وفيها آية تكرَّرَ نزولُها، فنزلتْ بمكّة، ونزلتْ بالمدينة، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥).

فقد أخرَجَ البخاريّ بسنَدِه عن عبد الله بن مسعودٍ ﷺ قال: بَيْنَا أنا مع النبي ﷺ في حَرْثٍ وهو مُتَّكِئٌ على عَسيبٍ إذ مرَّ اليَهودُ، فقال بعضُهم لبعض: سَلُوه عن الروح، فقال: ما رَابَكم إليه، وقال بعضُهم: لا يستَقْبِلُكم بشيءٍ تكرَهُونَه، فقالوا: سَلُوه، فسألُوه عن الروح، فأمْسَكَ النبيّ ﷺ، فلم يرُدَّ عليهم شيئاً، فعلِمْتُ أنّه يُوحَى إليه،

فقُمتُ مقامي، فلمّا نزلَ الوحيُ قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

صحيح البخاري/ كتاب: التفسير/ باب: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾/ رقم (٤٤٤٤)، وفي روايةٍ: (كنتُ مع النبيّ ﷺ في حَرْثٍ بالمدينة ... الحديث.

انظر: صحيح البخاري/ كتاب: الاعتصام/ باب: ما يكره من كثرة السؤال/ رقم (٦٨٦٧).

وهذا صريحٌ في مدنيّة هذه الآية؛ لأنّ سؤال اليهود كان بالمدينة.

وأخرَجَ الترمذيّ بسنَده عن ابن عباس ﷺ قال: قالتْ قُرَيشٌ لِيَهُودَ: أعْطُونا شيئاً نسْألُ هذا الرجل، فقالوا: سلُوه عن الرُّوح، قال: فسألوه عن الرُّوح، فأنزلَ الله ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ... الحديث.

سنن الترمذي/ كتاب: تفسير القرآن/ باب: ومن سورة بني إسرائيل/ رقم (٣١٤٠)، وصحَّحَه الألبانيّ.

انظر: صحيح سنن الترمذي (٢٦٩/٣) رقم (٣١٤٠).

وأخرجَه أحمد في المسند (٢٥٥/١) رقم (٢٣٠٩)، ابن أبي عاصم في السنّة (٢٦٤/١) رقم (٥٩٥)، النسائيّ في السنن الكُبرى (٣٩٢/٦) رقم (١١٣١٤)، أبو يعلى في المسند (٣٨٠/٤) رقم (٢٥٠١)، ابن حبّان في صحيحه (٣٠١/١) رقم (٩٩)، الطبرانيّ في المعجم الأوسط (٧٣/٨) رقم (٨٠٠٢)، الحاكم في المستدرك (٥٧٩/٢) رقم (٣٩٦١)، وصحَّحَه، ووافقَه الذهبيّ، البيهقيّ في دلائل النبوّة (٢٦٩/٢)، وذَكَرَه ابن حجر في فتح الباري (٤٠١/٨) من الترمذيّ، وقال: "ورجاله رجالُ مسلم". اهـ.

وهذا يدُلُّ على مكيّة هذه الآية بقرينة قول ابن عباس ﷺ فيه: (قالتْ قريشٌ ليهود)، أي: راجعتْ قريشٌ اليهودَ في هذا الأمر، فلقَّنُوها ذلك، فسألتْ قريشٌ النبيّ ﷺ.

ولما كان كلا القولَينِ استنَدَ إلى دليلٍ صحيحٍ ذهبَ غيرُ واحدٍ من أهل العلم إلى الجمْع بينهما، فقالوا بتكرّر نزول هذه الآية، ولعلّه هو الصَّواب، والله أعلم.

قال الذهبيّ: "وأمّا حديث ابن مسعود فيدُلُّ على أنّ سؤال اليهود عن الروح كان بالمدينة، ولعلّه ﷺ سُئِلَ مرّتين". اهـ.

تاريخ الإسلام (٢١٣/١)

قال ابنُ حجر بعد إيراده للرّوايتَينِ: "ويمكنُ الجمع بأن يتَعَدَّد النزول بحمْل سكوته في المرّة الثانية على توَقُّع مزيد بيانٍ في ذلك، وإن ساغَ هذا وإلاّ فما في الصحيح أصَحُّ". اهـ.

فتح الباري (٤٠١/٨)

انظر: تفسير مقاتل (٢٤٦/٢)، الناسخ والمنسوخ للنحّاس ص (٥٤٥)، الكشّاف (٦٠٤/٢)، المحرر الوجيز (٤٣٤/٣)، تفسير الرازي (١١٦/٢٠)، تفسير القرطبي (٢٠٣/١٠)، تفسير الخازن (١٢٧/٤)، تفسير البحر المحيط (٤/٦)، البرهان في علوم القرآن (٢٠١/١)، تفسير النيسابوري (٣٢١/٤)، اللّباب لابن عادل (١٩٣/١٢)، الدر المنثور (١٣٨/٩)، فتح القدير (٢٠٥/٣)، روح المعاني (٢/١٥)، التحرير والتنوير (٦/١٥).

○○○○○

سورة الكهف

١٠٩- قال السيوطيّ: وأخرَجَ ابنُ مردويه عن ابن الزبير قال: نزلَتْ سورةُ الكهف بمكّة (١).

(١) الدر المنثور (٤٧٣/٩)، وانظر: فتح القدير (٢٦٨/٣)، روح المعاني (١٩٩/١٥).

دراسة الأثر:

لا خِلافَ بين المفسّرين في مكيّة سورة الكهف، لكن هل هي مكيّة كلُّها أم فيها آيات مدنيّة اختَلفُوا فيه على أقوال، وهي:

القول الأول: أنّها مكيّة كلّها، رُوِي عن ابن الزبير وابن عباس – رضي الله عنهما –، والحسن ومجاهد وقتادة، وهو قولُ جمهور المفسّرين.

القول الثاني: أنّها مكيّة إلاّ أوّل السورة إلى قوله تعالى: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (الكهف: ٨)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ (الكهف: ١٠٧-١٠٨)، فهذه الآيات مدنيّة، رُوِي عن مُقاتل وقتادة.

ولعلَّ السبب في استثناء آيات من أول السورة ما ذكرَه ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ (الكهف: ٤) قال: هم اليهود والنصارى.

تفسير ابن أبي حاتم (٢٣٤٤/٧) رقم (١٢٦٩٧)

أي: فيما قالوه، فقالت اليهود: عُزَير ابنُ الله، و قالت النّصارى: المسيحُ ابنُ الله.

ويمكنُ الجوابُ عنه: أنّه لا يلزَم منه أن تكونَ هذه الآية نزلتْ فيهم؛ فقد سبَقَهم المشركون في هذه المقولة، فقالوا: الملائكة بناتُ الله، فتكونُ الآية نزلتْ فيهم، ويدخُل في عمومها اليهود والنصارى؛ لاتّحاد السبَب.

والقولُ بأنّ المراد بالآية المشركونَ اختارَه غيرُ واحدٍ من المفسّرين.

قال القرطبيّ: "﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، يعني: قريشاً في قولهم: إنّا نعبُدُ الملائكة، وهي بناتُ الله". اهـ.

تفسير القرطبي (٣٤٨/١٠)

قال ابنُ عاشور: "والمراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ هُنا المشركون الذين زعمُوا أنّ الملائكة بناتُ الله، وليس المراد به النصارى الذين قالوا بأنّ عيسى ابنُ الله تعالى؛ لأنّ القرآن المكيّ ما تعرَّضَ للردّ على أهل الكتاب مع تأهُّلِهم للدخول في العُموم؛ لاتّحاد السبب". اهـ.

التحرير والتنوير (٢٥١/١٥)

وأمّا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية إلى آخر السورة فلعلّ السبب في استثنائه ما أخرَجَه الترمذيّ بسنده عن ابن عباس ﷺ قال: قالتْ قُرَيشٌ لِيَهُودَ: أعْطُونا شيئاً نسْألُ هذا الرجل، فقالوا: سلُوه عن

الرُّوح، قال: فسألوه عن الرُّوح، فأنزلَ الله ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٨٥)، قالوا: أُوتيْنا علماً كثيراً التوراة، ومن أُوتِيَ التوراةَ فقد أُوتِي خيراً كثيراً، فأُنْزِلَتْ ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ ﴾ إلى آخر الآية.

سنن الترمذي/ كتاب: تفسير القرآن/ باب: ومن سورة بني إسرائيل/ رقم (٣١٤٠)، وصحَّحَه الألبانيّ.

انظر: صحيح سنن الترمذي (٢٦٩/٣) رقم (٣١٤٠)، وسبق تخريجه في ص (٣٠٧).

ويمكنُ الجوابُ عنه: أنّه لا يلزَم منه أنّ اليهودَ سألُوا النبيّ ﷺ مُشافَهَةً، فتكون هذه الآية مدنيّة، بل يُحتَمل أنّهم لقَّنُوا ذلك قُريشاً، فسألتْ قريشٌ الرّسولَ ﷺ، ويُقوّي هذا الاحتمال قولُ ابن عباس ﷺ فيه: (قالتْ قريشٌ ليهود)، أي: راجعتْ قريشٌ اليهودَ في هذا الأمر، فلقَّنُوها ذلك.

قد يكونُ من أسباب الاستثناء ما أخرَجَه الطبريّ بسنده عن مُعاوية بن أبي سُفيان ﷺ أنّه تلاَ هذه الآيةَ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (الكهف: ١١٠)، وقال: إنّها آخِرُ آيةٍ نزلتْ من القرآن.

تفسير الطبري (١٣٦/١٨)، وأخرَجَه الطبرانيّ في المعجم الكبير (٣٩٢/١٩) رقم (٩٢١)، وذكرَه الهيثميّ في مجمع الزوائد (١٤/٧)، وعزاه للطبراني، وقال: "ورجالُه ثِقاتٌ". اهـ.

وأورَدَه ابن كثير في تفسيره (٢٠٨/٥)، وقال: "وهذا أثرٌ مُشكِلٌ؛ فإنّ هذه الآية هي آخِرُ سورة الكهف، والكهف كلّها مكيّة، ولعلّ مُعاوية أرادَ أنّه لم ينزِلْ بعدها ما يَنْسِخُها، ولا يُغيِّرُ حكمَها، بل هي مُثبَتة محكمَة، فاشتبَه ذلك على بعض الرُّواة، فرَوَى بالمعنى على ما فهِمَه، والله أعلم". اهـ.

القول الثالث: أنّها مكيّة إلاّ قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ الآية (الكهف: ٢٨)، فهو مدنيّ، رُوِي عن ابن عباس ﷺ، وقتادة.

ولعلّ السببَ في استثناء هذه الآية ما أخرَجَه ابن ماجه بسنده عن خبّاب بن الأَرَتّ ﷺ من سبب نزول آية شبيهة بهذه الآية، وهي قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ الآية (الأنعام: ٥٢) أنّ عُيَيْنَة بن حِصْن والأقْرَع بن حابِس وأشباههما من رُؤساء العرب قالوا للنبيّ ﷺ: لو أبعَدْتَ هؤلاء عن نفسِك لجَالَسْناك، يعنُون فُقَراءَ المؤمنين، مثل: عمّار، وبِلال، وصُهَيْب، وسلمان الفارِسي، وأمثالهم ﷺ، فنزَلت.

سنن ابن ماجه/ كتاب: الزهد/ باب: مجالسة الفقراء/ رقم (٤١٢٧)، وصحَّحَه البوصيريّ والألبانيّ.

انظر: مصباح الزجاجة (٢١٩/٤)، صحيح سنن ابن ماجه (٣٥٣/٣) رقم (٣٣٤٦).

وأخرجه ابن أبي شيبة في المسند (٣١٨/١) رقم (٤٧٧)، البزّار في المسند (٦٩/٦) رقم (٢١٣٠)، الطبريّ في تفسيره (٣٧٦/١١) رقم (١٣٢٥٨)، الطحاويّ في شرح مشكل الآثار (٣٣٩/١)، ابن أبي حاتم في تفسيره (١٣٠٠/٤) رقم (٧٣٤٤)، الطبرانيّ في المعجم الكبير (٧٥/٤) رقم (٣٦٩٣)، أبو نعيم في حِلية الأولياء (١٤٦/١)، البيهقيّ في شُعَب الإيمان (٣٣٤/٧) رقم (١٠٤٩١).

ومعلومٌ أن الأَقْرع بن حابس وعُيَيْنه بن حصْن لم يُسلِما إلاّ بعد الهِجْرة.

ويُمكنُ الجوابُ عنه: أنّ ما جاء في رواية ابن ماجه من نزول الآية في قصّة الأَقْرَع بن حابس وعُيَيْنة بن حصْن يُعارِضُه السببُ الذي أخرَجَه مسلم في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقّاص ﷺ قال: كنّا مع النبيّ ﷺ ستّة نفر، فقال المشركون للنبيّ ﷺ: اطرُدْ هؤلاء لا يَجتَرِئُون علينا، وكنتُ أنا، وابنُ مسعود، ورجلٌ من هُذيل، وبلال، ورجلان لستُ أسمِّيهما، قال: فوقعَ في نفس رسول الله ﷺ ما شاءَ الله أن يقَعَ، فحدَّث نفسَه، فأنزَلَ الله ﷻ ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾.

صحيح مسلم/ كتاب: الفضائل/ باب: في فضل سعد بن أبي وقاص/ رقم (٢٤١٣).

وهذا أصحُّ في السببيّة، ويتوافقُ مع سورة مكيّة.

قال ابنُ عطيّة: "سببُ هذه الآية أنّ عُظَماء الكفّار، قيل: من أهل مكّة، وقيل: عُيَينَة بن حِصْن وأصحابُه، والأوّل أصْوَبُ؛ لأنّ السورة مكيّة ...". اهـ.

المحرر الوجيز (٥١٢/٣)

القول الرابع: أنّها مكيّة إلاّ قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ الآية (الكهف: ٢٨)، وقوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ (الكهف: ٨٣- ١٠١)، فمدنيّ.

والسبب في استثناء قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ وما بعده من الآيات ما جاء في أثرٍ طويلٍ عن عقبة بن عامر ﷺ أنّ الذين سألُوه ﷺ كانوا قوماً من أهل الكتاب، وكان السؤالُ بالمشافَهَة.

أخرَجَه الطبريّ في تفسيره (٩٢/١٨)، وذكرَه ابن كثير في تفسيره (١٨٩/٥) مختصراً، وضعَّفه، وقال: "وفيه طول ونَكارَة، ورفعُه لا يصِحُّ، وأكثرُ ما فيه أنّه من أخبار بني إسرائيل". اهـ.

تفسير ابن كثير (١٨٩/٥)

والصّواب – والله أعلم –: أنّ السائلين هم قُريش، ولقَّنَهم هذا السؤالَ اليهودُ، كما لقَّنُوهم فيما رواه الترمذيّ عن ابن عباس ﷺ قال: قالتْ قُرَيش لليهود: أَعْطُونا شيئاً نسألُ هذا الرجل، فقالوا: سلُوه عن الرُّوح ... الأثر.

سنن الترمذي/ كتاب: تفسير القرآن/ باب: ومن سورة بني إسرائيل/ رقم (٣١٤٠)، وصحّحه الألبانيّ.

قال أبو حيّان: "والمشهور أنّ السائلين قُريش حين دَسَّتْها اليهود على سؤاله عن الروح، والرجل الطوَّاف، وفِتيَة ذهبُوا في الدّهر؛ ليقَعَ امتحانُه بذلك". اهـ.

تفسير البحر المحيط (١٤٩/٦)

قال الألوسيّ: "والسائلون في المشهُور قُرَيش بتلقينِ اليهود". اهـ.

روح المعاني (٢٤/١٦)

والرّاجح – والله أعلم –: أنّها مكيّة كلّها، كما رُوِي عن ابن الزبير ﷺ؛ فهو قولُ جمهور المفسّرين، ولأنّ القول بالاستثناء – كما سبق – ضعيفٌ.

قال ابنُ أبي زمنين: "وهي مكيّة كلّها". اهـ.

تفسير ابن أبي زمنين (٤٧/٣)

قال الألوسيّ: "وهي مكيّة كلّها في المشهُور". اهـ.

روح المعاني (١٥/١٩٩)

انظر: تفسير مقاتل (٢/٢٧٨)، الناسخ والمنسوخ للنحّاس ص (٥٥٥)، الكشّاف (٢/٦٥٧)، المحرر الوجيز (٣/٤٩٤)، تفسير القرطبي (١٠/٣٤٦)، تفسير البحر المحيط (٦/٩٣)، البرهان في علوم القرآن (١/٢٠١)، تفسير النيسابوري (٤/٤٠١)، تفسير الثعالبي (٢/٣٦٦)، تفسير أبي السعود (٥/٢٠٢)، الدر المنثور (٩/٤٧٣)، الإتقان في علوم القرآن (١/٥٠)، الناسخ والمنسوخ للكرمي ص (١٣٦)، فتح القدير (٣/٢٦٨)، روح المعاني (١٥/١٩٩)، التحرير والتنوير (١٥/٢٤١).

قولــه تعــالى: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ الكهف/٣٦.

١١٠- قال أبو حيّان: وقَرَأَ ابنُ الزبير ... (مِنْهُمَا)، علَى التَّثْنِيَة (١).

(١) تفسير البحر المحيط (١٢٠/٦)، وانظر: المحرر الوجيز (٥١٧/٣).

دراسة الأثر:

قُرِئَ قوله تعالى: ﴿مِّنْهَا﴾ بوجهَين، وهما:

١- (مِنْهُمَا) بزيادة الميم بعد الهاء، على التثنية؛ نظراً إلى الأصل في قوله تعالى: ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ (الكهف: ٣٢)، و﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ (الكهف: ٣٣)، رُوِي عن ابن الزبير ﷺ، وهو قراءةُ ابن كثير ونافع وابن عامر.

٢- (مِنْهَا) بحذف الميم، على الإفراد؛ نظراً إلى أقرَبَ مذكورٍ في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾، وهو قراءةُ أبي عَمرو وعاصم وحمزة والكسائي.

وكلتا القراءتَينِ صحيحتان؛ فهما سبعيّتان متواترتان.

انظر: معاني القرآن للفرّاء (١٤٤/٢)، المصاحف لابن أبي داود ص (١٤٥)، السبعة في القراءات ص (٣٩٠)، تفسير السمرقندي (٣٤٧/٢)، حُجّة القراءات ص (٤١٦)، الكشف والبيان (١٧٠/٦)، التيسير في القراءات السّبع ص (١٤٣)، تفسير البغوي (١٧١/٥)، الكشّاف (٦٧٤/٢)، المحرر الوجيز (٥١٧/٣)، زاد المسير (١٤٢/٥)، تفسير القرطبي (٤٠٤/١٠)، تفسير البحر المحيط (١٢٠/٦)، الدر المصون (٤٩٠/٧)، النشر في القراءات العشر (٣١٠/٢)، اللّباب لابن عادل (٤٨٨/١٢)، إتحاف فضلاء البشر ص (٣٦٦)، فتح القدير (٢٨٦/٣)، التحرير والتنوير (٣٢١/١٥).

قولـه تعـالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴾ الكهف/٧٧.

١١١- قـال أبـو حيّـان: وقـرَأَ ابـنُ الـزبير ... بكَسْـرِ الضَّـاد، وإسْـكانِ اليـاء، مـن (أَضَافَ) (١).

(١) تفسير البحر المحيط (١٤٣/٦)، وانظر: المحرر الوجيز (٥٣٣/٣)، شواذّ القراءات للكرماني ص (٢٩٢)، روح المعاني (٥/١٦).

دراسة الأثر:

قُرِئَ قوله تعالى: ﴿**يُضَيِّفُوهُمَا**﴾ بوجهَينِ، وهما:

١- (يُضَيِّفُوهُمَا) بفتْح الضّاد، وشدِّ الياء، مِنْ (ضَيَّفَه يُضَيِّفُه)، وهو قراءةُ الجمهور.

٢- (يُضِيفُوهُمَا) بكسْر الضّاد، وإسكان الياء، من (أضَافَه يُضِيفُه)، رُوِي عن الزبير ﷺ، ومجاهد والأعمش وشِبْل وابنِ مُحَيصِن وأبي رَجَاء والحسن وأبي رَزِين، وعاصِم في رواية المفضّل، وأبَان.

والقراءتـان بمعنىً واحـدٍ، يقـال: ضَيَّفَ فُلانـاً وأَضَـافَه: إذا أنزَلَـه ضَـيفاً، فهـو (مُضَـيِّفٌ) بالتشـديد، و(مُضِـيفٌ) بالتخفيف، فهما مثل: ميَّلَ وأمَالَ، وكَرَّمَ وأكرَمَ.

والاختيار: الوجه الأوّل؛ فهو قراءة سبعيّة متواترة، وما رُوِيَ عن ابن الزبير ﷺ شاذٌّ، لم يُقرَأْ به في العَشْر.

انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (٤١٠/١)، تهذيب اللغة (ضاف) (٥٣/١٢)، المحرر الوجيز (٥٣٣/٣)، شواذّ القراءات للكرماني ص (٢٩٢)، زاد المسير (١٧٥/٥)، تفسير البيضاوي (٥١٤/٣)، تفسير البحر المحيط (١٤٣/٦)، الدر المصون (٥٣٣/٧)، لسان العرب (ضيف) (٢٠٩/٩)، اللّباب لابن عادل (٥٤٢/١٢)، تفسير أبي السعود (٢٣٧/٥)، إتحاف فضلاء البشر ص (٣٧٠)، تاج العروس (ضيف) (٦٣/٢٤)، روح المعاني (٥/١٦).

قولـه تعـالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٖ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ﴾ الكهف/٨٦.

١١٢- قال الفرّاء: حدثني محمد بن عبدُ العزيز (١) عن مُغِيرة (٢) عن مُجاهِد (٣) أنّ ابنَ الزبير قرَأَ (حَامِيَة) (٤).

دراسة الإسناد:

(١) محمد بن عبد العزيز التَّيمِيّ، يَروي عن المغِيرة بن مِقْسَم، روى عنه أحمد بن يونس، ضعَّفَه الدَّارَقُطنيّ، وقال الدَّارِميّ: "ثقة"، وذكرَه ابن حبّان في الثقات.

انظر: الجرح والتعديل (٦/٨) رقم (٢٣)، الثقات لابن حبان (٦١/٩) رقم (١٥١٨٨)، لسان الميزان (٢٦٠/٥) رقم (٨٩٧).

(٢) المغِيرَة بن مِقْسَم الضَّبِّيّ، ثِقة، مُتقِن إلاّ أنّه كان يُدلِّس، تقدَّم في الأثر (١٦).

(٣) مجاهِد بن جَبر المكِّي، ثِقَة، تَقَدَّم في الأثر (٩).

درجة الإسناد:

فيه محمد بن عبد العزيز، اختُلِفَ في توثيقه وتضعيفه، ولعلّ القول بتوثيقه أقوى؛ فهو قولُ الأكثر، والله أعلم.

وعلى فرض ضَعْفه الأثر له شاهد عند عبد الرزاق في تفسيره (٢١٦/١)، وسعيد بن منصور في السنن (٦٩/٥) رقم (٩٠١) بإسنادٍ صحيحٍ، فيرتقي هذا الأثر إلى درجة الحسن لغيره.

ومُغِيرَة بن مِقْسَم وإن كان موصوفاً بالتدليس، وعَنعَنَ عن مُجاهِد، فقد أخرَجَ له البخاريّ بهذه العَنعَنة.

انظر: صحيح البخاري رقم (٤٧٦٥).

(٤) معاني القرآن (١٥٨/٢)، وذكرَه النحّاس في معاني القرآن (٢٨٦/٤)، الأزهريّ في تهذيب اللغة (حمى) (١٧٩/٥)، الثعلبيّ في الكشف والبيان (١٩٠/٦)، الماورديّ في تفسيره (٣٣٩/٣)، ابن منظور في لسان العرب (حمأ) (٦١/١)، الزبيديّ في تاج العروس (حمأ) (٢٠١/١).

١١٣- قال عبد الرزاق: أنبأنا ابنُ عُيَيْنَة عن عَمْرو بن دينار سمِعْتُ ابنَ الزبير يقولُ: إنَّ صِبْيَاناً هاهُنا يقرَؤُون (دَارَسْتَ)، وإنَّما هِي (دَرَسَتْ) ...، ويقرَؤُون ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، وإنَّما هِي (حامِيَة) (١).

دراسة الإسناد:

تقدَّمَ هذا الإسناد في الأثر (٧٧).

درجة الإسناد:

إسناده صحيحٌ.

(١) تفسير عبد الرزاق (٢١٦/١)، وأخرَجَه سعيد بن منصور في السنن (٦٩/٥) رقم (٩٠١) عن سفيان بن عيينة به بنحوه، ابن أبي داود في المصاحف ص (٢٠٥) رقم (٢٢٢) عن أبي الطاهر عن سفيان بن عيينة به بنحوه، وذكرَه السيوطيّ في الدر المنثور (١٦٥/٦)، وعزاه لسعيد بن منصور وعبد الرزاق وعبد بن حُميد وابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ.

دراسة الأثرين (١١٢- ١١٣):

قُرِئ قولُه تعالى: ﴿حَمِئَةٍ﴾ بوجهَين، وهما:

١- (حَمِئَة) على وزن (فَعِلَة)، صفة مشبَّهة، من قولهم: حَمِئَتِ البئرُ تَحْمَأ حَمْأً، فهي حمِئَة: إذا صار فيها الطِّين الأسْوَد، رُوِيَ عن ابن عباس ﷺ، ومجاهد وقتادة، وهو قراءةُ نافع وابن كثير وأبي عمرو ويعقوب، وحفص عن عاصم.

ومن حُجّة هذه القراءة قولُ الشّاعر في مدْح ذي القَرنَين:

فرَأى مَغِيبَ الشَّمس عند مَآبِها ... في عَين ذي خُلُبٍ وثَأْطٍ حَرْمَدِ

اختُلِف في قائله، فنُسِبَ لتُبَّع الحِمْيري، انظر: تهذيب اللغة (ثطا) (٧/١٤)، و(آب) (٤٣٥/١٥)، لسان العرب (أوب) (٢١٩/١)، ونُسِبَ لأُميّة بن أبي الصَّلْت، انظر: تهذيب اللغة (خلب) (١٧٨/٧)، لسان العرب (حرمد) (١٤٨/٣)، و(ثأط) (٢٦٦/٧)، وتردَّد ابنُ منظور بين تُبَّع وغيره، انظر: لسان العرب (خلب) (٣٦٥/١).

والخُلُب: الطِّين، والثَّأطُ: الحَمْأة، والحَرْمَد: الأسوَد.

انظر: الفائق في غريب الحديث والأثر (٣٢٠/١).

٢- (حَامِيَة) اسمُ فاعل، من قولهم: حَمِيَتِ الحَدِيدَةُ تَحمَى، فَهِيَ حَامِيَةٌ: إذَا اشتَدَّ حَرُّها بالنَّار، رُوِي عن ابن الزبير وابن مسعود وابن عمر وابن عمرو ومعاوية ﷺ، وطلحة بن عُبَيد الله والحسن وعِكرمة والنخعي وقتادة، وهو قراءةُ أبي جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وشُعبة، وأبي بكر عن عاصمٍ.

ومن حُجّة هذه القراءة ما أخرجَه أبو داود من حديث أبي ذر ﷺ قال: كنتُ رديفَ رسول الله ﷺ وهو على حِمار، والشمس عند غروبها، فقال: "هل تدْرى أين تغرُبُ هذه؟"، قلتُ: اللهُ ورسوله أعلَمُ، قال: "فإنّها تغرُبُ في عينٍ حامِيةٍ".

سنن أبي داود/ كتاب: الحروف والقراءات/ رقم (٤٠٠٢)، وصحَّحَه الألبانيّ.

انظر: صحيح سنن أبي داود (ط: مكتبة المعارف) (٤٩٤/٢) رقم (٤٠٠٢).

وأخرَجَه ابن أبي شيبة في المسند كما في إتحاف الخِيَرة المهرة (٢٠٩/٦) رقم (٥٦٩٩)، وصحَّحَه البوصيريّ، أحمد في المسند (١٦٥/٥) رقم (٢١٤٩٧)، البزّار في المسند (٤٠٧/٩) رقم (٤٠١٠)، الطبريّ في تفسيره (٢٥٧/١٢) رقم (١٤٢٢)، الحاكم في المستدرك (٢٦٧/٢) رقم (٢٩٦١)، وصحَّحَه، ووافقَه الذهبيّ.

وكلتَا القراءتَيْنِ صحيحتانِ؛ فهما سبعيّتانِ متواترتان، ولا مُنافَاةَ بينهما؛ لجَواز كونِ العَينِ جامِعَةً للوصْفَيْنِ بأن تكونَ ذاتَ طينٍ أسوَدَ، وماؤُها حارٌّ.

قال الطبريّ: "والصَّواب من القول في ذلك عندي أن يُقال: إنّهما قراءتانِ مُستفيضَتانِ في قراءة الأمصار، ولكلّ واحدةٍ منهما وجهٌ صحيحٌ، ومعنى مفهوم، وكلا وجهَيْه غيرُ مُفسدٍ أحدُهما صاحبَه؛ وذلك أنّه جائزٌ أن تكونَ الشمسُ تغرُبُ في عينٍ حارّة ذاتِ حمْأَةٍ وطينٍ، فيكونُ القارئ في (عينٍ حامِيَةٍ) بصِفَتِها التي هي لها، وهي الحَرارَة، ويكون القارئُ في (عينٍ حَمِئَةٍ) واصِفَها بصِفَتِها التي هي بها، وهي أنّها ذاتُ حمْأةٍ وطينٍ". اهـ.

تفسير الطبري (٩٧/١٨)

قال ابنُ كثير: "ولا منافاةَ بين معنَيَيهِما؛ إذ قد تكونُ حارَّةً؛ لمجاوَرَتها وَهْجَ الشمس عند غُروبِها، ومُلاقاتِها الشُّعاعَ بِلاَ حائِلٍ". اهـ.

تفسير ابن كثير (١٩٢/٥)

انظر: معاني القرآن للفرّاء (١٥٨/٢)، تفسير عبد الرزاق (٤١٠/١)، تفسير الطبري (٩٥/١٨)، السبعة في القراءات ص (٣٩٨)، معاني القرآن للنحّاس (٢٨٦/٤)، تهذيب اللغة (حمى) (١٧٩/٥)، الحُجّة في القراءات السبع ص (٢٣٠)، تفسير السمرقندي (٣٦٠/٢)، حُجّة القراءات ص (٤٢٨)، الكشف والبيان (١٩٠/٦)، تفسير البغوي (١٩٩/٥)، المحرر الوجيز (٥٣٩/٣)، زاد المسير (١٨٥/٥)، تفسير الرازي (١٤١/٢١)، تفسير القرطبي (٤٩/١١)، تفسير البيضاوي (٥٢٠/٣)، التسهيل لابن جزي (١٩٥/٢)، تفسير البحر المحيط (١٥١/٦)، تفسير ابن كثير (١٩١/٥)، لسان العرب (حمأ) (٦١/١)، النشر في القراءات العشر (٣١٤/٢)، الدر المنثور (٦٦٤/٩)، إتحاف فضلاء البشر ص (٣٧١)، تاج العروس (حمأ) (٢٠١/١)، فتح القدير (٣٠٨/٣)، روح المعاني (٣١/١٦)، التحرير والتنوير (٢٥/١٦).

○○○○○

سورة مريم

١١٤- قال السيوطيّ: وأخرَجَ ابنُ مردويه عن ابن الزبير قال: نزلتْ سورة مريم بمكّة (١).

(١) الدر المنثور (٥/١٠)، وانظر: فتح القدير (٣٢٠/٣)، روح المعاني (٥٦/١٦).

دراسة الأثر:

لا خِلافَ بين المفسّرين في مكيّة سورة مريم، لكن هل هي مكيّة كلّها أم فيها آيات مدنيّة اختَلفُوا فيه على أقوال، وهي:

القول الأول: أنّها مكيّة كلّها، رُوِي عن ابن الزبير وابن عباس وعائشة ﷺ، وهو قولُ جمهور المفسّرين.

القول الثاني: أنّها مكيّة إلاّ آية السجدة منها، فهي مدنيّة، وهي قوله تعالى: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (مريم: ٥٨)، نزلتْ في مؤمني أهل الكتاب عبد الله سَلاَم ﷺ وأصحابه، رُوِي عن مُقاتل.

ودليلـه: قولـه تعـالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ (الإسـراء: ١٠٧)، وقولـه تعـالى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ (الإسراء: ١٠٩)، على أنّ الآيتَينِ في مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سَلاَم ﷺ وأصحابه.

والسّياق يخالِفُ هذا المعنى تماماً، فالذي يظهَر منه أنّ قوله تعالى: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ الآية صِفةٌ من تقدَّم ذكرُهم من الأنبياء – عليهم السلام –، فهو متّصل بما قبله من الآيات، أمّا عبد الله بن سَلاَم ﷺ وأصحابه فليسَ لهم ذكرٌ في هذا المقام.

قال ابنُ عاشور: "وعن مُقاتل: أنّ آية السجدة مدنيّة، ولا يستَقيمُ هذا القولُ؛ لاتصال تلك الآية بالآيات قبلها إلاّ أن تكونَ أُلحِقَتْ بها في النزول، وهو بعيدٌ". اهـ.

التحرير والتنوير (٥٧/١٦)

القول الثالث: أنّها مكيّة إلاّ آيَتَينِ، فهما مدنيّتان، وهما قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ (مريم: ٥٨– ٥٩)، ذكرَه ابن سلامَة المقريّ.

والسبب في استثناء قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ الآية (مريم: ٥٩) – فيما يظهَر – ما رُوِي عن السدّي في تفسيره قال: هم اليهودُ والنصارى.

ذكرَه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢٤١٢/٧) رقم (١٣١٥٣)، البغوي في تفسيره (٢٤٠/٥).

والظاهِر من الآية أنّها عامّةٌ في كلّ من أضاعَ الصلاةَ، واتبعَ الشهواتِ، فتَشمَل اليهودَ والنصارى وغيرَهم من الكُفّار، ويدخُلُ فيه كفّارُ مكّة دخولاً أوليّاً.

قال ابنُ عاشور: "وهذان – إضاعةُ الصلاة، واتباعُ الشّهوات – وصْفان جامِعان لأصناف الكُفر والفُسوق، فالشرك إضاعةٌ للصلاة؛ لأنّه انصراف عن الخُضوع لله تعالى، فالمشركون أضاعُوا الصلاةَ تماماً ...، والشرك اتباع للشّهوات؛ لأنّ المشركين اتَّبعُوا عبادةَ الأصنام؛ لمجرّد الشهوة من غير دليل، وهؤلاء هم المقصود هنا، وغير

المشركين كاليهود والنصارى فَرَّطوا في صلواتٍ، واتَّبَعُوا شهواتٍ ابتدَعُوها، ويشمَل ذلك كلَّه اسمُ الغيّ". اهـ.
التحرير والتنوير (١٣٥/١٦)

ثمّ لا يلزَم من كون المراد بهم اليهود والنصارى أنّ الآية مدنيّة؛ فقد يُرَادُ بهم اليهود والنصارى من الأُمَم السابقة.

قال الشنقيطيّ: "والظّاهر أنّهم اليهود والنصارى وغيرهم من الكُفّار الذين خلَفُوا أنبياءَهم وصالحيهم قبلَ نزول الآية، فأضاعُوا الصلاةَ، واتّبعُوا الشهوات، وعلى كلّ حال فالعِبْرة بعُمُوم اللّفظ لا بخُصوص السبَب، فكلُّ خلْفٍ أضاعُوا الصلاةَ، واتَّبَعوا الشهواتِ يدخُلُون في الذمّ والوعيد المذكور في هذه الآية". اهـ.
أضواء البيان (٤٤٥/٣)

القول الرابع: أنّها مكيّة إلاّ قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ (مريم: ٧١)، فهو مدنيّ، ذكرَه السيوطيّ في الإتقان، ولم يعزُه لقائلٍ.

ولم أقِفْ – بعد البحث – على قائله، ولا على سبب استثنائه، والآية في سياق تقرير البعث ممّا يُؤيِّد مكيَّتها.

والرّاجح – والله أعلم –: أنّها مكيّة كلّها، كما رُوِي عن ابن الزبير ﷺ، فهو قولُ جمهور المفسّرين، ولأنّ القولَ باستثناء شيءٍ منها – كما سبقَ – ضعيف.

انظر: تفسير مقاتل (٣٠٦/٢)، تفسير ابن أبي زمنين (٨٧/٣)، الناسخ والمنسوخ للمقري ص (١١٨)، الكشف والبيان (٢٠٥/٦)، المحرر الوجيز (٣/٤)، زاد المسير (٢٠٤/٥)، تفسير القرطبي (٧٢/١١)، تفسير البحر المحيط (١٦٢/٦)، تفسير الثعالبي (٢/٣)، الإتقان في علوم القرآن (٥٠/١)، الدر المنثور (٥/١٠)، الناسخ والمنسوخ للكرمي ص (١٣٧)، فتح القدير (٣٢٠/٣)، روح المعاني (٥٦/١٦)، التحرير والتنوير (٥٧/١٦).

قولـــه تعـــالى: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ مريم/٢٦.

١١٥- قـال الكِرْمـانيّ: وعـن أبيّ بـن كعْـب ... وابـن الـزبير ... (نَـذَرْتُ للـرَّحْمَنِ صَـوْماً وصَمْتاً) بالميم [١].

---

(١) شواذّ القراءات ص (٣٠٠).

دراسة الأثر:

قُرِئَ قوله تعالى: ﴿نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ بعدَّة أوجُهٍ، وهي:

١- (نذَرْتُ للرَّحْمَنِ صَوْماً)، وهو قراءةُ الجمهور.

٢- (نذَرْتُ للرَّحْمَنِ صِياماً) رُوِي عن ابن عباس ﷺ، وزيد بن علي، على أنّ المراد بالصِّيام الصَّومُ المعروف، وكانوا لا يَتَكلَّمُون في صِيامِهم.

٣- (نذَرْتُ للرَّحْمَنِ صَوْماً وصَمْتاً)، رُوِي عن ابن الزبير وأُبيّ بن كعْب وأنس ﷺ، على أنّ المراد بالصَّوم غيرُ الصَّمْت، كما تُفيدُه الواو.

قال القرطبيّ: "فإذا أتَتْ معه واو فممكن أن يكونَ غيرَ الصوم، والذي تَتابَعَتْ به الأخبارُ عن أهل الحديث ورُواة اللُّغة أنّ الصَّوم هو الصَّمْت؛ لأنّ الصَّوم إمساكٌ، والصَّمْت إمساكٌ عن الكلام، وقيل: هو الصَّوْم المعروف، وكان يلزَمُهم الصَّمْتُ يومَ الصَّوم إلاّ بالإشارة، وعلى هذا تُخْرَجُ قراءةُ أنس: (وصَمْتاً) بواو، وأنّ الصَّمْتَ كان عندهم في الصَّوم ملتزماً بالنذر، كما أنّ من نذَرَ منّا المشْيَ إلى البيت اقتَضَى ذلك الإحرامَ بالحجّ أو العمرة". اهـ.

تفسير القرطبي (٩٨/١١)

٤- (نذَرْتُ للرَّحْمنِ صَوْماً صَمْتاً)، رُوِي عن أنس وابن عباس وأُبيّ بن كعْب ﷺ.

قال القرطبيّ: "واختلاف اللَّفظَينِ يدلُّ على أنّ الحرف ذُكِر تفسيراً لا قرآناً ...، والذي تَتابَعَتْ به الأخبارُ عن أهل الحديث ورُواة اللُّغة أنّ الصَّوم هو الصَّمْت؛ لأنّ الصَّوم إمساكٌ، والصَّمْت إمساكٌ عن الكلام". اهـ.

تفسير القرطبي (٩٨/١١)

٥- (نذَرْتُ للرَّحْمنِ صَمْتاً)، رُوِي عن ابن مسعود وأُبيّ بن كعْب وأنس ﷺ، وأبو رَزين العُقَيلي، على أنّ المراد بالصَّوم هنا الصَّمْت؛ فإنّ أصل الصَّوم في اللّغة: الإمساك مُطلقاً، ومنه قيل: للصَّمْت صوم؛ لأنّه إمساكٌ عن الكلام.

قال ابن فارس: "الصّاد والواو والميم أصلٌ يدُلُّ على إمساكٍ وركودٍ في مكان، من ذلك صَوم الصَّائم، هو إمساكُهُ عن مَطعَمه، ومَشربه، وسائرِ ما مُنِعَهُ، ويكون الإمساك عن الكلام صوماً". اهـ.

مقاييس اللغة (صوم) (٣٢٣/٣)

قال الرَّاغب: "الصَّوم في الأصل: الإمساك عن الفعل مطعماً كان، أو كلاماً، أو مَشْياً". اهـ.

المفردات في غريب القرآن (صوم) ص (٢٩١)

ورُوِي هذا التفسير عن ابن عباس وأنس – رضي الله عنهما –، والضحّاك والشعبي، وهو قولُ جمهور المفسّرين؛ لقوله تعالى بعدَه في الآية: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

والاختيار: الوجه الأول؛ فهو قراءة سبعيّة متواترة، وما عداها شاذٌّ، لم يُقْرَأْ به في العشْر، وحكمُه عند أهل العلم – كما سبَقَ – التفسير.

انظر: العين (صوم) (١٧١/٧)، معاني القرآن للفراء (١٦٦/٢)، مجاز القرآن لأبي عبيدة (٦/٢)، فضائل القرآن للقاسم بن سلاّم ص (٣٠٤)، غريب الحديث لابن سلاّم (٣٢٨/١)، تفسير الطبري (١٨٢/١٨)، تفسير ابن أبي حاتم (٢٤٠٦/٧) رقم (١٣١١٤)، معاني القرآن للنحّاس (٣٢٦/٤)، القراءات الشاذّة ص (٨٤)، أحكام القرآن للجصّاص (٤٥/٥)، تهذيب اللّغة (صوم) (١٨١/١٢)، تفسير السمرقندي (٣٧٣/٢)، تفسير الماوردي (٣٦٧/٣)، تفسير السمعاني (٢٨٧/٣)، تفسير البغوي (٢٢٧/٥)، الكشّاف (١٥/٣)، المحرر الوجيز (١٣/٤)، شواذّ القراءات للكرماني ص (٣٠٠)، زاد المسير (٢٢٥/٥)، تفسير القرطبي (٩٧/١١)، تفسير البيضاوي (١٢/٤)، تفسير الخازن (٢٤٣/٤)، تفسير البحر المحيط (١٧٦/٦)، تفسير ابن كثير (٢٢٥/٥)، لسان العرب (صوم) (٣٥٠/١٢)، فتح الباري (٤٤٠/٩)، الدر المنثور (٦٢/١٠)، تاج العروس (صوم) (٥٢٨/٣٢)، فتح القدير (٣٢٩/٣)، روح المعاني (٨٦/١٦)، تفسير السعدي ص (٤٩٢).

قوله تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ مريم/٩٣.

١١٦- قال أبو حيّان: وقرَأ عبد الله [١] وابنُ الزبير ... (إلاّ آتٍ) بالتنوين، (الرَّحمنَ) بالنَّصْب [٢].

(١) هو ابنُ مسعود ﷺ.

(٢) تفسير البحر المحيط (٢٠٧/٦)، وانظر: وجه التهاني إلى منظومات الدِّيواني ص (١٧٥)، الدر المصون (٦٥٣/٧).

دراسة الأثر:

قُرِئَ قوله تعالى: ﴿ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ بوَجهَينِ، وهما:

١- (آتِي الرحمنِ) بالإضافة، وهو قراءةُ الجمهور.

قال النّحّاس في توجيهه: "(آتِي) بالياء في الخَطّ، والأصل: التنوينُ، فحُذِفَ تخفيفاً، وأُضِيفَ". اهـ.

إعراب القرآن (٢٩/٣)

٢- (آتٍ الرّحمنَ) بالتنوين في (آتٍ)، ونصْبِ (الرّحمن)، على الأصل قبل الإضافة، وهو قِراءةُ ابن الزبير وابن مسعود - رضي الله عنهما -، وأبي حَيْوَة وطلْحَة وأبي بَحْرِيَّة وابن أبي عَبْلَة ويعقوب.

والاختيار: الوجه الأول؛ فهو قراءة سبعيّة متواترة، وما رُوِي عن ابن الزبير ﷺ وإن كان صواباً إلاّ أنّه شاذٌّ، لم يُقرأْ به في العشر، وفيه مخالفةُ رسمِ المصحف.

قال الفرّاء: "ولو قُلتَ: (آتٍ الرحمنَ عبْداً) كان صَواباً، ولم أسمَعْه من قارِئٍ". اهـ.

معاني القرآن (١٧٣/٢)

انظر: القراءات الشاذّة ص (٨٦)، المحرر الوجيز (٣٤/٤)، تفسير البيضاوي (٣٦/٤)، تفسير النسفي (٤٧/٣)، تفسير البحر المحيط (٢٠٧/٦)، الدر المصون (٦٥٣/٧).

○○○○○